الطبعة الأولى :
1000
عـــدد : اربع روبيات

حقوق الطبع و الترجمة
محفوظة للدائرة الحميدية

(المطبعـــة الحميدية)

١٣٨٨ هـ

فهرس مطالب الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الجامع

حامداً و مصلياً

و بعد ، فان هذا التاليف الصغير لأستاذنا الامام الفراهى رحمه الله من خير التآليف القرآنية التى أخرجت للناس حتى الآن . و ليس بمقدرة هذا القلم العاجز أن يصف ما له من الأثر العظيم فى علوم القرآن و آدابه . فلا شك أنه من نعم الله التى قد انعمها عليه بفضل القرآن و اعجازه ، فقد فاق اقرانه بغزارة العلم ، وقوة الاستدلال ، وكمال الاجتهاد و حسن الابداع . فلا نبالغ إذا قلنا انه كتاب لم يصنف مثله من قبل .

قد افرده لذكر دلائل النظام ؛ و ما له من المكانة فى الكلام . فاثبت فيه أولا بالدلائل الواضحة أن للترتيب والنظام حظاً وافراً فى كل مركب . لا سيما فى الكلام البليغ و لا سيما فى هذا القرآن الحكيم . و الذين يزعمون خلاف ذلك فانهم قد أخطأوا فى زعمهم و لم ينصفوا كتاب الله . ألا ترى ان أحداً منهم لا يرضى بان يكون كلامه مختل النظام أو ضعيف الرباط ، بل لو لاح له بعد زمان ؛ شئ من الاختلال أو الضعف راجع فيه النظر و هذبه بغاية ما يمكنه . فكيف يرضون بهذا الخلل الفاحش فى كلام الله الحكيم العليم ؟ فلا شك أن الذين ذهبوا إلى نفي النظام فى كلام الله [illegible]

ثم صرح بعد ذلك بان القرآن الحكيم كلام منظم و مرتب من أوله إلى آخره على غاية حسن النظم و الترتيب ، و ليس فيه شئ من الاقتضاب لا فى آياته و لا فى سوره ، بل آياته مرتبة فى كل سورة كالفصوص فى الخواتم و سوره منظمة فى سلك واحد كالدرر فى القلائد ، حتى لو قدم ما اخر ، او اخر ما قدم لبطل النظام وفسدت بلاغة الكلام بل ربما يعود إلى قريب من الهذيان .

ثم أوضح — ثانياً — الوسائل التى تهدى إلى معرفة النظام ، و أهمها عنده التدبر فى القرآن ، لأن الله تعالى قد جعله محلا للتدبر والتفكر كما قال : (كتاب أنزلناه إليك مباركا ليدبروا آياته و ليتذكر أولوا الألباب) و كما قال فى موضع آخر : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها) و هذا كثير جداً . فالتدبر فى آياته هو أول اقليد لفتح هذا الباب . فمن نظر فى مطالب الآيات على حدتها و لم يتأمل فى مناسبة أجزاء السورة فقد عميت عليه الحكمة وحسن نظامها ، لان أكثر الحكم مخبوءة تحت دلالات النظام و إنه لا يبرز إلا بالتدبر .

و لكن مع ذلك للتدبر أيضاً أساس ، لا يدور قطب رحاه إلا عليه و هو الإيمان الصادق بالآخرة . كما قال تعالى : (و إذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً . و جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه و فى آذانهم و قرا) فإن معانى القرآن لا تكشف إلا للمتقين الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم . فليلتمس أولا من أراد التدبر فى القرآن قلبه . هل له الإيمان الصادق بالآخرة ؟ فإن وجد هناك الإيمان ، فقد وجد نوراً لفهم القرآن ولاخلاف فى ذلك .

فالتدبر مع الإيمان بالآخرة[1] هو أول مفتاح به يفتح كنوز القرآن . فالذى يكون بيده هذا المفتاح و هو كان عالماً بصحيح علوم اللسان الذى أنزل فيه القرآن ، فلا شك أنه يطلع على حسن نظامه و دقائق حكمته و إعجاز بلاغته . و يكون عند احتمال التاويلات الكثيرة على بينة من ربه ، فيختار ما كان أحسن منها تاويلا . و ذلك هو الفوز العظيم .

ثم مهد السبيل — ثالثاً — إلى طريق استنباط علم النظام و أصوله و لا شك أنه قد أدى حقه و أوفى ذمته ، حتى جعله فنا مستقلا على أصول واضحة ، مستنبطة من أساليب القرآن و قواعد اللسان ، لم يهتد إليه أحد ممن سبقه و هو قد اهتدى إليه بنور القرآن و ذلك من فضل الله .

فهذه ثلاثة مقاصد يتوجه إليها الكلام فى هذا الكتاب . و لا شك أنه من تحقيقه هذا ، قد فتح لنا باباً عظيما لفهم اسرار القرآن و بلاغته و سهل لنا الانتفاع به علماً و عملا . فانه قد هيأ لنا بذلك سلما تبلغ به نهاية سعادتنا شوقاً و محبة و لذة .

إن جماعة من العلماء المتقدمين ، قصدوا إلى هذا العلم و اعترفوا بأن علم المناسبة علم شريف و إن أكثر لطائف القرآن فى حسن نظمه ، كما صرح به الامام فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير ، وأيقن به الزمخشرى ، و أدعى علمه ابن العربى ، و أفرد له المخدوم المهائمى تفسيره المسمى بتبصير الرحمن وتيسير المنان . وصنف فيه الامام برهان الدين البقاعى كتابه نظم الدرر فى تناسب الآى و السور ، و الامام أبو جعفر بن الزبير شيخ أبى حيان كتابه البرهان فى مناسبة سور القرآن ، وغيرهم من العلماء المحققين الذين قد صنفوا فيه و بينوه علماً شريفاً و استحسنوه حتى شغفوا على

المنكر به.

و لكنهم — إن كان سعيهم مشكورا — لم يبذلوا جهدهم إلا فى الكشف عن المناسبة بين الآيات المتجاورة ، أو السور اللاحقة و السابقة. ولم يمعنوا النظر فى الكشف عن المناسبة التى ينتظم بها الكلام من أوله إلى آخره فيصير شيئاً واحداً فقنعوا بمجرد بيان المناسبة بينها من غير أن ينظروا إلى أمر عام شامل بكل ما يحتوى عليه الآية أو السورة . فلذلك لم يصيبوا فى أكثر المواضع بل خبطوا فيها خبط عشواء . و ذلك لأن أكثر الآيات و هكذا أكثر السور أيضاً ليست متصلة فى كل موضع ، بل الآية التالية أو السورة اللاحقة ربما تكون متصلة بالتى قبلها على بعد منها . فمن طلب المناسبة بينها مع عدم اتصالها فكيف يهتدى إلى نظامها ؟ و كيف يفهم مرامها ؟ فإن خبطوا فيها فلا عجب .

و لكن مع ذلك الفضل للمتقدم ، فإنهم قد أبرزوا اعتناءهم أولا بربط الآيات ونظام السور فلا شك أنهم قدوة لنا . و لو تمم المتأخرون ما تركوه غير تام و أوضحوا ما خفى عليهم لصار ذلك العلم فنا مستقلا . و لكن لم يتوجهوا إليه كما ينبغى ، و لم يكن هذا إلا لدقته و غموضه ، فبقى هذا العلم على ما كان فى عصره الأول . حتى جاء أستاذنا الإمام بحول الله و توفيقه فجعل هذا الجدول بحراً . فإنه قد أسس أولا لهذا العلم مبنياً على أصوله وأحكامه ، واستخرج له فروعا جامعة ، ثم صاغه فى قالب الفن المستقل ، و تم بتحقيقه لنا مجال الانضباط فى وادى التشكيك [illegible] [illegible] علم النظم القرآنى الذى [illegible] الأستاذ [illegible] ليس [illegible] الذى كان [illegible] السالف [illegible]

لأن التناسب إنما هو جزء من أجزائه ، و النظام شئ زائد عليه بل أوسع منه و أعم كما هو مبسوط فى موضعه.

فعلم النظام لا يظهر التناسب وحده بل يجعل السورة كلاما واحداً ، و يعطيها وحدانيتها التى بها صارت سورة كاملة مستقلة بنفسها ، ذات عمود تجرى إليها أجزاؤها ، و يربط الآيات بعضها ببعض حتى يأخذ كل آية محلها الخاص ؛ و يتعين من التأويلات المحتملة أرجحها ، فمن تدبر القرآن فى ضوء النظام فلا شك أنه لا يخطأ فى فهم معانيه ، و ذلك لأن النظام قد يبين له سمت الكلام ، و ينفى عنه تشاكس المعانى ، و يرد الأمور إلى الوحدة ، و يسد أبواب الدخول فيه للأهواء حتى يجبره أن لا يأخذ إلا بصحيح التأويل و لا يعتمد إلا عليه و هو أعظم مطلوب .

إن هذه الاختلافات الشديدة التى نشأت بيننا ، و قطعت حبائل الفتا . بجلها قد وقعت من عدم التزام رباط الآيات فى تأويلاتها . فإذا اختلفنا فى تأويل القرآن ، اختلفت عقائدنا و صرنا مختلفين فى ديننا ، حتى انشقت عصانا و قامت العداوة و البغضاء فينا كما أخبر الله تعالى عن أهل الكتاب : (فنسوا حظاً مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة و البغضاء إلى يوم القيامة) فأشبه حالنا حالهم . فلو ظهر لنا النظام فى آياته و أخذنا من المعانى ما أراده الله ، لاجتمعنا تحت راية واحدة و ما اختلفنا فى كلمة سواء بيننا . فالدواء الوحيد لهذا الداء العضال أن نتدبر القرآن بقلب ساذج ، و نؤمن بل نطمئن بما يظهر لنا من نظامه فلا نذهب إلا حيث يجرنا و إنما هو الذى لا يصلح أمورنا إلا به . كما قال النبى ﷺ: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها". لعل الله يرزقنا منه رزقا حسناً .

وأخيراً يناسب أن أذكر كلمات فى ما يتعلق بجمع هذا الكتاب وترتيبه :

(١) فاعلم أن هذا الكتاب ليس إلا مجموعا من أفكار الامام الفراهى رح، قد ابتكرها لكتابه هذا — دلائل النظام — ولكن لم يتيسر له أن يرتبها ، ماعدا عدة فصول توجد فى أوائله (١ — ١٠) فما زاد على ذلك فهو مما كان مبثوثاً فى مخطوطاته . فجمعته انا كما وجدته ورتبته حسب ما رأيتـــه مناسباً فان أصبت فيه فبتوفيق ربى وإن أخطأت فمن نفسى ، والأستاذ الامام رح برى منه .

(٢) وإذ لم يكن أكثر هذا المجموع إلا كالاشارات التى يختزنهـــا المصنفون لمصنفاتهم من غير تفصيل . فلاغرو إن كان فيه شئ من الاجمال والابهام ، فلذلك ينبغى لمن درس هذا الكتاب أن لا يمر علـــيه كالريح العاصف أو البرق الخاطف . بل يقف على كل سطر منه ويتفكر فـــيه ، عسى أن يجده فصلا مستقلا .

وكان فى وسعى أن أفصل ما اجمل ، وافـــر ما ابهم ، ولـكننى أحببت أن اجتنبه ، كيلا يختلط مع أفكاره فكر آخر . فلم ازد عليه ولم انقص منه شيئاً بل ابقيته كما وجدته فى المخطوطة . فانظروا فيه وتفكروا ، فان فى التفكر ترويضاً لعقولنا وتربية لها .

(٣) أنا معترف بانى لم أكن أهـــلا لهذا الأمر العظيم ولـكنى قد اضطررت إليه بالوصية التى أوصانى بهـا شيخنا المغفور له اختر احسن الاصلاحى الذى كان تلميذاً رشيداً للامام الفراهى رح وامينا لمخطوطاته النـادرة . إذ قال لى يوما فى عام قد توفى فـــيه ما يكون لهـــذه الامانات التى قد أودعناها الأستاذ الامام رح ؟ — واشار إلى مخطوطاته — فقلت له ماذا تريد ؟ فقال أريد أن تطبع هذه كلها من غير تاخير ، فقدمضى عليها أكثر من ربع قرن ولم يطبع منها إلا نزر يسير ، فاجبته لذلك . ولـكن قبل أن أهيئ لها أسباب الطبع . حان له الرحيل وهو ارتحل إلى جوار رحمة ربه الـكريم . فوقعت بعد ذلك فى حيص وبيص ، لأنى كنت رجلا قليل البضاعة فى العلم ، ومن كان لنا معتمداً فيه ومستنداً إليه ، لم يبق فينا . فخشيت هذا الأمر العظيم ورأيت مراراً أن أطويه على غره ، ولـكن لم تزل وصيته رح تضطرنى إليه . فراجعت فضيلة الأستاذ الجليل أمين أحسن الاصلاحى مستشيراً فى ذلك ، وهو ثانى اثنين إذ هما يتأدبان بآداب الامام الفراهى رح بمدرسة الاصلاح ، وهو المرجع الوحيد بهذا العصر لافكار الأستاذ الامام وعلومه القرآنية ، فشجعنى على الوفاء بما عهد إلى شيخنا المغفور له ، ووعدنى بكل اعانة احتيج إليها فارضيت بعد ذلك نفسى بهذا العمل العظيم مستعيذاً بالله من ظلمات النفس وغوايات الجهل .

فهذا أول مجموع من أفكاره النادرة القرآنية التى وفقنى الله تعالى بجمعه وترتيبه وهكذا اجمع كل تاليف له وأنشره واحداً بعد واحد إن شاء الله تعالى . وبيده التوفيق .

بدر الدين الاصلاحى
مدير الدائرة الحميدية .

غرة محرم سنة ١٣٨٨ هـ

تصحيح أغلاط الطبع
فى هذا الكتاب

ص	س	الغلط	الصواب
١٨	٦	تغلت	نغلث
٣٣	١٧	الدبابات	الديانات
٤٦	١٥	لكل	بكل
٧١	٥	آياتها	آياته
٧٦	٦	ووجهة	ووجهه
١١٢	١١	ترق ـ تجل	ترق ـ تجل
١١٤	١٤	لمرغوب	بمرغوب
١١٨	١٢	عن	من
١٢١	١٣	X	تطعنهم سلكى و مخلوجة كرك لا مين على نابل

دلائل النظام

النظام :

لماذا ؟

المقصود من معرفة النظام ليس الا التدبر ، فانه الاقليد له . ثم التدبر فى الكتاب هو الوسيلة إلى الهدى و التقوى . فهما أصلان . فان النفس بالهدى يستبصر و بالتقوى يتزكى . و الايمان مع شعبه العلمية يدخل فى الهدى . و الشرائع و الأخلاق و الأحوال تدخل فى التقوى . و قد بين الله ذلك فى القرآن و التوراة و الانجيل .

ثم يهتدى إلى النظام بأوائل التدبر ، فيضطر إلى معرفة النظام . فإن أقل جملة من القرآن يستدعى تدبراً و يهدى إلى ما هو فوقه و هلم ، فثم ، حتى إذا اتضح النظام كل الاتضاح ، تجلى محاسن السورة و الحكمة التى هى تمام العلم و التقوى .

(الفراهى ٣٠)

النظام :

لمن ؟ للعلماء

المقصود فى هذه الفصول أن معرفة النظام من الضروريات لعلماء الأمة ، حتى يعلموا الناس حسب ما فهموا . فانهم إن لم يفهموه و اختلفوا فيه كيف يرشدون الناس ؟ بل يشتد ضرر قيادتهم لأنفسهم و لجميع المسلمين .

أهمية علم النظام للعلماء

و قد رأينا ذلك فى أهل الكتاب فانهم زاغوا عنه مع دعواهم بأنهم حافظوا علـيه ، فكانوا كما قال الله تعالى فيهم : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » و كما قال المسيح عليه السلام فى علماء اليهود : « العميان قادة العميان » .

و قد نرى أنهم اقروا بذلك واشتغلوا بالعلوم التى هى وسائل إلى افهمه و أكثروا فى تفسير الكتاب و لم يتركوا من هـذه العلوم ما يظنوه نافعـاً لهذا المطلب الاسنى . و مع ذلك تراهم مختلفين غاية الاختلاف تكثر بهم الآراء . . . فان فهم الكلام لايمكن بدون معرفة النظام و إنه هو السبيل الوحيد إلى فهمه . . .

(الفراهى ٣٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الصانع الخلق على اكمل نظام واحسن قوام ، الواضع الأشياء فى اجدر مقام ، و ارفق مصـام . و الصلواة و السلام على المويد بابلغ كلام ، و خاتم النبوة بالاتمام ، كبدر تجلى من بين الغمام ، محمد المبعوث لهداية كافة الأنام ، إلى سبل السلام وعلى آله و اصحابه الكرام ، إلى مدى الليالى و الأيام .

أما بعد فهذا كتاب أفردناه لذكر دلائل النظام ، و نريد بالدلائل :

١ : ما يدل على وجود النظام فى القرآن و يثبته .

٢ : و ما يهديك إلى معرفته و طريق استنباطه .

فهذان قسطان: الأول نظرى و الثانى عملى وكلاهما اصولى ، يبحث فيه عن الاصول الكلية للنظام عموما ، و لنظام القرآن الحكيم خصوصاً . و من هذه الجهة هو فن مستقل من البلاغة ، بل هو الذروة العليا منها . ولولا القرآن و اعجازه ، ما اهتدينا إليه ، كما أنا لم نطلع على حقيقة البلاغة و نهجها ، لولا كشف القرآن القناع عن وجهها . كما قد اوضحناه فى كتاب

جمهرة البلاغة . ثم نزيد عليهما قسطاً ثالثاً ، نورد فيه أمثلة لترتيب المطالب و ترتيب سورة مع سورة . و هذا البحث و إن كان خصوصياً و مادياً و كان أولى بأصل التفسير ، فإنا وضعنا طرفا منه ههنا لثلاثة أمور :

الأول : إن القلوب على الأكثر لا تطمئن بمحض الدلائل حتى تشاهد المدلول عليه ، و ذلك بأن استعمال الكليات و سوقها إلى ما يقتضي منها ، أصعب جداً . بل كل ما يكشف من العلوم ، فمقدماتها معلومة من قبل ، و لكن الفكر لم يهتد إليه إلا إذا شاء الله تعالى .

و الثاني : إن الأمثلة و إن كثرت ، لا تزيل الشبهة عمن يظن أن أكثر القرآن منظم ، و إنما الاقتضاب في مواضع خاصة و في سور خاصة ، مثل الطوال و كثير من المفصلات ، فأردت أن أذكر في هذا القسط من مشكلات النظام حتى إذا اتضح النظام في المواضع الصعبة ، لم يستبعده في ما دونها أو مثلها .

و الثالث : إن بيان النظام الكلي بحيث يعلم أن القرآن كله ، كما أنه مرتب الآيات فكذلك منظم السور ، فإن قدمت و أخرت ، ذهب أطراف من الحكمة ، كما لو بدل ترتيب الآيات . فهذا البيان الكلي لا يوجد له موضع في تفسير بعض السور دون بعض فلذلك وضعناه في القسط الثالث من هذه المقدمة .

٢ — موضوع الكتاب

معرفة النظم في معاني الآيات و السور ، هو الموضوع لكتابنا هذا .

و أما نظم القرآن من حيث أنه على ترتيب كان في عهد النبي عليه السلام ،

فهو أمر لا يشك فيه إلا من جهل بالتاريخ ، فإن السور كلها كانت تقرء في الصلوة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . و بلغ هذا حد التواتر . فإنهم كانوا يقرؤنها في صلواتهم و كانوا يسمعون النبي عليه السلام يقرءها .

و إنما يشك من يشك في ترتيب السور ، لا آياتها . هل هو كان ترتيب في عهد النبي أم رتبها الجامعون للقرآن ؟ و الصحيح الثابت أن ترتيب سور القرآن أيضاً من عند الله ، و جاء به جبريل ، و علمه النبي ، و هو علمه الصحابة كما علم . و هاتان المسئلتان من مسائل تاريخ القرآن فتفصيلهما يوجد هنالك . (١) و أما في هذا الكتاب فنتخذ المسئلة من الأصول الموضوعة . لكونها معلومة بالتواتر ، فلا نثبتها بل نثبت بها ، و من خالجه شك فيها ، فليراجع موضع تفصيلها . (٢)

(١) كتاب نحو مطبوع للامام الفراهي (الجامع) .

(٢) قال الشيخ الامام ابو الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي المتوفى خمسين واربع مأة في كتابه المسمى (باعلام النبوة) ص ٤٣ في ابطال شبهة من زعم أن اسلوب القرآن لم يكن متبايناً عن سائر الكلام ، لزعمه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطلب شهوداً ممن يأتي بآية أو آيتين . فقال الماوردي رحمه الله تعالى : « و الثاني أنه طلب الشهادة على عينها من أية سورة هي ، و في أي موضع منها توضع . و إن كان معلوم الاسلوب بالمباينة ، لأن الله تعالى كان يأمر بوضع ما أنزله في ما يراه من السور كقوله تعالى : « إن علينا جمعه و قرآنه » . انتهى قول الماوردي .

ولا يخفى من قوله أنه فهم من الآية أن جمع القرآن و ترتيبه كان من الله تعالى . فكان القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مرتباً . كل سورة و آية و لفظ كانت موضوعة في محلها . و أما الصحابة رضي الله عنهم فتلقوه ما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم حسب ذلك الترتيب ، ثم في عهد أبي بكر رضي الله عنه لم يحاولوا إلا جمع ذلك في مصحف واحد . فإن القرآن كان قبل ذلك محفوظاً في صدور الحفاظ و مكتوباً في أجزاء ، فلم يألوا جهداً في المحافظة على ما كان القرآن أخذا من النبي صلى الله عليه وسلم . فكانوا لا يكتبون في المصحف إلا بعد شهادتين أو أكثر ، شهادة من حافظ قوي و شهادة من كتابة . و هذه الشهادة لم يطلبها عمر رضي الله عنه ليعلم أنه من القرآن . لأنهم كانوا يعرفون أسلوب

وبالجملة فانا لانشك أن ترتيب القرآن محفوظ على ما جاء به جبريل الأمين، آية، آية و سورة، سورة من غير تقديم أو تاخير. فهل هذا الترتيب على أحسن الوجوه أو إنما هو آيات منتشرة غير مرعية النظام؟ فهذه مسئلة متنازعة وموضوع هذا الكتاب هو اثبات حسن نظامه و وجوب معرفته و تسهيل الطريق إليها. فان اصبنا الغرض فبتوفيق ربي، فسبح له و نشكره، و اذلا آمن على نفسى عثرات الجهل و الضعف، فنستعيذ به و نستغفره.

٣ — غاية الكتاب

الغرض الأصلى من هذا الكتاب، هو الانتفاع بالقرآن تعلمه وتعليمه والعمل به و حث الناس عليه. و ذلك سلم إلى نهاية السعادة و هو الفوز بمرضاة الرب و الايفاء بالعهد الفطرى و العبودية و الرضى و الطمانينة بها. و بالجملة هو تحقيق الايمان و الاسلام و تكميل الفطرة الانسانية التى سجدت لها الملائكة، و تلك هى الدرجة العليا من هذا السلم.

و أما بدؤها، فتربية أخص صفات الانسان و هو البيان. فان الانسان لم يكمل صفاته العقلية و الفؤادية إلا بعد أن صار ذا نطق مبين. فهذه البداية تسوق إلى تلك النهاية، إذا لم يقع فيها زيغ، كما هو الأمر فى كل طريق مستقيم، فلم يخلق الله الانسان ناطقاً، قارئاً إلا ليتلقى الهدى

★ القرآن و يميزونه من غيره، ولكن ليعلم عليه – و هذا ما أراد الماوردى رحمه الله تعالى. و لا يخفى أن الشهادة لها فوائد غير ذلك ولكن نقلنا قول الماوردى لنعلم أنه رحمه الله تعالى فهم من آية «ان علينا جمعه و قرآنه» ما هو التأويل عندى والله أعلم بالصواب. (منه رحمه الله تعالى).

الذى وعده ربه و يقرء آياته المشهودة و كلماته المتلوة، فيستنير بالنور الذى أنزله إليه، حتى يسبغ عليه نعمته و يفرغ فيه رحمته كما قال: «الرحمان. علم القرآن. خلق الانسان. علمه البيان.» فانظر كيف نبهك بغاية الايجاز على ما قدمنا، فبدء بنفسه فانه هو البادى بالرحمة و التعليم و علمك ان كمال رحمته هو تعليمه القرآن. و إنه خلقك و علمك البيان لتعدك لذلك التعليم. و من ههنا تبين حكمة ما روى فى الخبر: «خيركم من تعلم القرآن و علمه.» (رواه ابن ماجه، عن سعد).

فالنبى صلى الله عليه وسلم تعلمه من الرب و علم الأمة. فهو خير الناس من غير شك. ثم من تعلم منه وعلم غيره، و هكذا على تفاوت الدرجات حسب كثرة الوسائط و قلتها، و حسب خلوص النية و التمسك به. و اى خير يكون اعظم من قبول تعليم الرب و تبليغه لعباده؟ و اى خير يكون أكبر للانسان من أن يبلغ الغاية التى فطره الله لها؟

فان قلت إن الله تعالى خلق الانسان للعبادة عامة، فكيف تخصه بتعلم القرآن و تعليمه؟ قلنا كل أمة تدعى عبادة الرب و لكنها ضائعة وباطلة، حتى تكون حسب تعليم الرب وهدايته. و هل القرآن إلا ذلك، فهو ام العبادة و محورها و مخ العبودية و جوهرها. و لذلك صارت نفس تلاوته عبادة.

فان قلت قد فهمنا و سلمنا ما ذكرت من رفيع منزلة القرآن و تعلمه و تعليمه، و نعلم إنا لو استزدنا لزدت عليه حتى يظن المستمع أنه فوق كل علم بل لا علم إلا هو، وذكرتنا ما قال الامام الشافعى رحمه الله تعالى: «الناس فى العلم طبقات، مواقعهم من العلم بقدر درجاتهم فى العلم به».

— اى القرآن — ولكن اين ذلك من غرض هذا الكتاب الذى خصصته لدلائل نظام القرآن؟ قلنا لاتستعجل، وفقك الله فلست ببعيد عما تسأل.

(٢) قد سبق آنفاً أن الغرض الأصلى من هذا الكتاب هو الانتفاع بالقرآن تعلمه و تعليمه و العمل به والحث عليه، و الانتفاع به موكول إلى فهمه، و الكلام لا يفهم إلا بعد المعرفة تركيب أجزائه و تناسب بعضه، بل معانى الأجزاء أنفسها لا يطلع على المراد منها إلا بعد الاطلاع على جهتها التاليفية، كما سيأتيك بيانه، و ما لهذا الغرض من المكانة فى الدين و فى اصلاح الانسان و إكماله. و قد تبين لك هذا بظاهر أمره، فانظر هل يمكن تعلمه من غير أن تفهمه؟ و هل تصور أن تطلع على المعانى التى أراد المتكلم القاءها، و جعل الكلام عليها دليلا، و أسلوب بيانه إليها سبيلا؟ من دون أن تعلم أولا روابط الكلام و أنحاءها على سبيل الاجمال، ثم تعلم مواقعها ثانياً، ثم إذا نظرت فى استعمال ذلك فتميز وجوه الربط ثالثاً. فان اتصال جملة بقرينها يكون لوجوه مختلفة، فمن لم يفهم وجه الاتصال أو أخطأ فى تعيينه، أخطأ المراد أو جهله، ولم يطلع على ما تضمنه الكلام من العلم و الحكمة. و بالجملة محال أن تفهم كلاما من دون أن تعلم نسبة بعضها الى بعض. فان أخذت كل جزء طويل على حدته، غاب عنك بعض معانيه. ثم إن قصرت عن فهم نسبة أجزاء هذا الجزء، غاب عنك طرف آخر. حتى إنك تنقص من فهمك شيأ فشيأ، بقدر ما تقصر عن فهم النسب التى بين أجزائه، فاذا تبين لك هذه النسب والروابط بين أجزائه ورأيت أنه كلام مربوط، مسوق إلى عموده، ظهر حسن بيانه.

٤ — أسباب قلة الاعتناء بعلم النظام

(١) من أضر ما يظنه المتغافل عن علم النظم، أنه مع اشكاله و صعوبته و كونه من مزلات الأقدام ليس من مهمات الدين، فلابد أن يعتنى بما هو أهم و أنفع، و قد جاء فى صحيح الخبر: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». فتتبع النكات اللطيفة فى نظم الكلام و استنباط وجوه البلاغة فيه، يكون من أشغال الفرصة. فمن جعل ذلك من مهمات العلوم و حث الطلبة على التشمير له، فقد منعهم عن الواجب و قلب الأمر و أخل بنظام التعليم. و قد سمعنا هذه الشبهة من بعض من اعترف بوجود النظم فى القرآن، و قال: إن القرآن إنما نزل للعمل به و الاستهداء بنوره، لا للاشتغال باستنباط لطائفه و نكات بلاغته! فعلمت أن الباطل لا يغفل عن عمله و لا يعوزه طريق اتيانه على أهله. فان سددت عليه ثلمة، هجم عليك من جانب آخر. فأقول و بالله التوفيق:

(٢) لا شك أن هذا القائل لم يتصور ما نحن بصدده. لطائف البلاغة و وجوه الاعجاز ليست مقصودة لذواتها و لا هى غاية ما تتوزيه. بل ليست معرفة نظام الكلام و روابط معانى الآيات ما هى طلبتنا — كل ذلك يأتيك عرضاً — إنما المقصود هو التدبر فى معنى القرآن الذى سبق إليه بيانه، و معرفة النظام إنما هى الوسيلة إليه. فهل تظن أنك فى غنى عن ذلك؟ و أن ليس لك حاجة إلى ما أنزل الله إليك من عيون الحكمة و النور و الشفاء؟ و هل ترتضى أن تجعل نفسك ممن يظن أن كتب الفقه قد تكفلت بما أمر الله و نهى، فلم تبق لنا حاجة إلى القرآن؟ أليس

أن ظواهر الأحكام منوطة بالعقائد و النيات ؟ و هما منوطتان ببواطن
الأخلاق . و كذلك صلاح الأفراد منوط بصلاح الجماعة و هو بأصول
خفية من الحكمة و التدبير . و كذلك متى كان مجرى الأمور على السداد،
كما يكون مجرى الطبيعة على الصحة . قل احتياجنا الى اصول الاصلاح
و تدبير الأخلاق و تصحيح النيات . و لكن اذا غلب الفساد و فسدت
العقائد و تغلّت القلوب و تبدد من الملة نظامها و زاغ من الشريعة قوامها
و استحوذ سلطان البدع و الأهواء ، اشتد احتياجنا إلى الحكمة الالهية
و معرفة طريق الشفاء و الخروج من فتن الشقاق في الدين . حين التبس
الطريق ، و أعجب كل ذي رأي برأيه ، و ضرب الجهل بجرانه ، ورفض
الاستهداء بالقرآن الحكيم الذي عرفه الله تعالى بالنور و الشفاء ، و عشوا
عن الحكمة التي أودعها الله تعالى في كتابه ، فلم يطلع عليها من يمر به
كالراكب السريع أو الريح العاصف ؟ و لو لا ذلك فلماذا أمرنا الله تعالى
بالتدبر في كتابه و التفكر في آياته ؟ و إن لم يكن هنالك معارف مكنونة
فبماذا يرجع التدبر و التفكر فيه ؟ فان ظننت أن المعارف كلها مودعة في
الجمل التامة ، و من فهمها فقد إطلع على ما تضمنته . سواء عرف نظامها
أم لم يعرف ، كما أن من حاز بالجواهر . فان عليه سلكها فان القيمة لها
فان شاء نظمها و إن شاء تركها كما هي . اجبناك بأن هذا الظن يبدي
عدم المعرفة بما للنظم و التركيب من المكانة في كل مركب ، لا سيما في
الكلام و لا سيما في هذا القرآن الحكيم . فنقول و بالله التوفيق :

(٣) أسرح النظر في جميع ما حولك و فوقك و تحتك من الكائنات
تجدها مركبات و مصنوعات للانتفاع و التمتع ، و تجد للتركيب حظاً عظيماً

في منافعها و محاسنها ، بل لو شئت قلت إن التركيب هو أصل ماهية
كل شئ وحقيقة وجوده . فك عنه التركيب ، ينقلب كأنه لا شئ . ولذلك
ليست الصنعة و كمالها إلا في صحة التركيب ، و إنما يمدح الصانع أو يعاب
حسب اتقان التركيب أو ضعفه و كذلك كل عمل و تدبير إنما ينجح أو
يخسر من جهة تركيبه ، فهذا أصل راسخ لا يخفى على أولى النهى .

فان تبينت ذلك . التفت إلى موضع التركيب في الكلام ، فانه شئ
مولف ركّب بعضه ببعض و لم يصر ذا معنى إلا بعد تركيبه ، فانما هي
الصورة التركيبية ما دل على معناه. ألا ترى ذلك عياناً في اللفظة الواحدة،
فانما صارت كلمة ذات معنى بما وضعت حروفها على ترتيب خاص ؟ و
كذلك الحال لتركيب الكلمات في جملة . فانها لم تصر ذات معنى خاص إلا
بما وضعت كلماتها على تركيب مخصوص. و هكذا الأمر في تركيب الجملات
حتى تصير كلاما حسناً أو حديثاً عجباً أو حجة دامغة أو حكمة بالغة مشتملة
على فنون البلاغة و أطراف البراعة .

و لا شك أن تركيب الكلمة بالكلمة يفيد معنى ، و لكن اين ذلك
من معنى يعطيك تركيب الجملة بالجملة ، و كذلك مجموع من الجمل يتضمن
تاليفاً آخر ، له دلالة على ما لا يدل عليه أجزاء هذا التالف من حيث
الافراد ، فلا شك أن الكلام إنما هو بنظامه ، فانه يحسن أو يبلغ أقصى
البلاغة ، لا بمحض أجزائه بل بنظمه و ترتيبه على ما ينبغي ، فمن أراد
أن يطلع على حسن بيانه ، و قوة استدلاله ، و تاثيره في النفوس ، و
دلالته على مكنون الحكمة . لابد أن يلتمس ذلك من معرفته بتركيب
جملاته ، فان ذلك حصل للكلام من مواقع معانيه و ترتيبها .

فان كنت فى شك مما ذكرنا أو أردت زيادة اطمئنان و إيضاح ، فاعمد إلى خطبة بليغة مشتملة على الترغيب و الترهيب و الحكم و الأمثال و الحجة و الاستدلال ثم سل عنها النظام ، و قدم و أخر من غير مراعاة مواقعها ، ثم أنظر كيف ذهب عنها أكثر ما فيها من التقريب بين الدعوى و دليلها ، و التدرج من المقدمات إلى المقاصد ، و التوضيح لما يقتضيه ، و كل ما فيها من حسن البيان وكمال البلاغة ، و كل ما يشير إليها من المطالب و الفوائد ، أو حل شبهة ناشئة ، أو الماع إلى معارف تاريخية أو أخلاقية أو حكمية ، ربما يكون بعضها أصلا لمعارف جمة و أصول مهمة ، فان خليتها عن نظامها ، ربما تعود إلى قريب من الهذيان .

٥ — رفع بعض الشبهات

تذكرة :

زعم بعض العلماء أن الكلام المنظم الذى يجرى إلى عمود خاص ليس من عادة العرب . فانك ترى فى شعرهم اقتضاباً بيناً ، فلو جاء القرآن على غير أسلوبهم ثقل عليهم . و هذا زعم باطل . فان العرب كانوا يتلهون بالشعر و لا يعدونه من المعالى ، و إنما كانوا يعظمون الحكماء و يحبون الخطبات الحكيمة و لذلك كانت الاشراف يأنفون عن قول الشعر و أن يعرفوا به . وإنما يتحملونه نزراً على وجه الحكمة وضرب المثل . ومحض الوزن و النظم لا يعد شعراً . أن للشعر مواضيع من فنون الهزل و الاطراب ، فهو على كل حال من لهو الحديث . فمن نظم الابيات فى غير مواضيعه لا يسمى شاعراً إنما هو ناظم . و من هذا الجانب المعروف من

حقيقة الشعر قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان من الشعر لحكمة و ان من البيان لسحرا » . أى هذا يكون على الندرة و لذلك نزه الله تعالى نبيه عن الشعر حيث قال : (و ما علمناه الشعر و ما ينبغى له ان هو إلا ذكر و قرآن مبين لينذر من كان حياً و يحق القول على الكافرين) سورة يس آية ٦٩—٧٠ .

فان تبين لك هذا الفرق بين الشعر و البيان و أن العرب لم يكن أكثر كلامهم الجزل شعرا ، فهل بعد ذلك تجعل القرآن على أسلوب الشعر و أنه مقتضب البيان كله ؟ ألا ترى كيف جعل الله ذلك من ذمائم الشعراء ، و قدمه على الكذب مع ظهور شناعة الكذب ، فنبه على أن القول من غير غاية و عمود و نظام أدل على سخافة القائل . فقال تعالى فى ذم هؤلاء الشعراء : (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون و أنهم يقولون ما لا يفعلون) سورة الشعراء آية ٢٢٥ ـ ٢٢٦ هل الهيمان فى كل واد إلا الجريان فى القول من غير مقصد و نظام . و ليس للعقل فيه رغبة ، و لكن النفس ربما ترغب فى الملاهى و الخلو عن الفكر فتميل إلى ذلك كما تميل إلى الخمر و الغناء و أشغال تغفلها عن الهموم و الأفكار و هذا ليس بدواء و لكنه داء . . . . . (بياض فى الأصل) .

٦ — ما أنكر من أنكر بالنظم إلا كرهاً و لعوائق

(١) ما أنكر بوجود النظم فى القرآن من أنكر به إلا خلاف رضاه ، و لو لا أكره عليه لتحاشى عنه . فانه لا يرضى عاقل أن يترك بين الناس كلاما له ، و هو يعلم أنه مختل النظم بل لو لاح له بعد زمان

شئ من الاختلال ، راجع فيه النظر و هذبه بغاية ما يمكنه . و كذلك لا يتهم به من حسن فيه ظنه ، و انما يتهمه إذا عجز عن فهمه . و لم يتهم فيه نفسه بالتقصير ، فحينئذ ينسب إلى القائل اساءة الصناعة . و ذلك إذا كان الكلام من مخلوق . فاما إذا كان من الخالق تعالى و تقدس و هو محفوظ و مرتب على غير ترتيب النزول ، و ألقاه الملك الأمين إلى نبي كريم فصيح اللسان من قوم مشهور بالفصاحة و البيان ، و قد قرء عليه مراراً ، و لا شك أن حسن الشئ و نفعه مودعان فى تناسب أجزائه لاسيما الكلام البليغ ، و لا سيما إذا تحدى به البلغا فعجزوا عن الاتيان مثله و لو بسورة واحدة ، فلا أدرى كيف يظن به ظان و هو من المسلمين المؤمنين بالله و تنزيله ، أنه خال عن حسن النظام ؟ و قد بينا فى موضعه ببسط القول ما يمنع عن هذا الرأى البعيد . و المقصود ههنا محض الاشارة إليه .

فاذا كان الأمر كذلك ، فلا شك أن الذين ذهبوا إلى نفى النظام لم يذهبوا إليه الا لأسباب اضطرتهم اليه . فلنذكر بعض تلك الأسباب لتعرف عذرهم و تبقى على حسن ظنك بهم و لتخرج من محض التقليد الى مطمئن من الحق . فان الأذكياء و الحكماء لا يذهبون الى رأى نكر الا فراراً مما هو أشد نكارة ؛ فمن لم يعرف ذلك إما أساء بهم الظن و سد على نفسه الانتفاع بهم ، أو قلدهم فى أمر ظاهر الفساد فعمى و تصامم عن الاستماع لكل دليل واضح ؛ فان إساءة الظن إلى دلائلك اهون عليه من اساءة الظن باولائك الأكابر ، و إن نقلت من بعض الأكابر ما يوافق الحق اشتبه عليه الأمر و ربما اتبع ما عليه الأكثرون . فلذلك احتجنا إلى

ذكر بعض الأسباب المانعة عن الايقان بالنظام مع وضوح دلائله فنقول و بالله التوفيق :

الأول : و هو أقوى الأسباب ، تبرئة كلام الله عن كل عيب وشين. و لا شك أنه ظاهر النظام و الترتيب فى كثير من المواضع و لكنهم لو إدعوا أن كله منظم و النظم مرعى فيه ، لاضطروا فى مواضع إلى القول بعدمه و ذلك لغموضه و دقته ، فتركوا هذا المسلك و لم يحولوه الى قصور أفهامهم . فان منها ما وجدوه خلاف أصول النظم و تيقنوا أنه لايمكن فيه تصور نظم ما . كما ترى فى آية (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى و قوموا لله قانتين) سورة البقرة : آية ٢٣٨ فان هذه الآية واقعة بين ذكر متصل لأمور النساء ثم بعدها يرجع الى الذكر الأول و لو لا هذه الآية لكان البيان على غاية الاتصال . و من بين مناسبة هذه الآية لم يات بما يتقبله من رزق شيئاً من الانصاف و يستمع القول فيتبع أحسنه . و من الذين يؤمنون بوجود النظام بعض من نسب ذلك إلى عجز فهمه . و ذلك هو المسلك الاحوط . و قد كشف لنا غطاؤه بعد سنين فالحمد لله رب العالمين (و ما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا الله) سورة الاعراف آية ٤٣ .

و الثانى : و ليس بادون من الاول ، و لكن الاول يتعلق بالمصنفين و الثانى يتعلق بالناظرين فى كلامهم . و هو أن أكثر من ذهب إلى وجود النظم كالامام الرازى رحمه الله قنع فى هذا الأمر الصعب بما هو أهون من نسيج العنكبوت مع سبقه الظاهر فى العلوم النظرية و الذكاء . فمن نظر فى كلامه تيقن بأن النظم لو كان كما يدعيه هذا الامام المتبحر و أمثاله ، لما خفى عليه مع خوضه فيه . و إذ لا يأتى هو و لا غيره إلا بكل ضعيف

فلا مطمع فيه لأحد بعد هؤلاء. فأما بقي على قوله بوجود النظم و لكن يئس من علمه و أغلق بابه، فإن سمع أحداً يدعوه إليه لم يسمعه. و إما صار إلى الرأى الذى خلته أسلم، و هو أن القرآن إنما نزل منجما مفرقا فلا يطلب فيه نظام. (١)

و الثالث: اكثار الوجوه فى التاويل و اكثار الجدل و قال و قيل، و ذلك بان النظم إنما يجرى على وحدة، فبحسب ما تكثرت الوجوه تعذر استنباط النظام. فمن نظر فى هذه الوجوه المتناقضة و الاقاويل المتشاكسة تحير، لا يدرى ماذا يختار منها؟ و أصبح فى حجب من النظم الذى يجرى من كل جملة فى وجه واحد كمن سلك طريقاً يصادف فى كل غلوة طرقا شتى.

(١) من افاداته (رحمه الله تعالى):

اعلم هداك الله، إن من أساء الظن بهم أولى بالخطأ ممن أحسن الظن فيه. فإن سوء الظن هذا منهم مبني على قلة مساعدتهم بولاء الأذكياء و قلة تمرينهم بهذا العلم الشريف. فلهم لو انصفوا لنكروا سعيهم. فإن من يعرض على الدر في بحر عميق لا تثريب عليه أن لم يظفر بالفرائد. بل يستحق المدح لجرائه. و لما دفع بابا لم يفتحه. فكم ترك الأول للآخر. و لا شك أن من جنّ طرقاً من النظم له منة على الخلف. فإن هذا العلم لا مطمع في بلوغ نهايته و أي علم استقصوه؟ فإنه بحر لا تنقضي عجائبه، و محاسن نظم الكلام لا يعرف كلها إلا بعد استقصاء معانيه وذلك بقي أكثرها مكنونا.

فالذين أنكروا بوجود النظام في كتاب الله لما وجدوا من الضعف في كلام القائلين بالنظم الذي فيه، و إن كانوا أقرب إلى الخطأ ممن أساءوا الظن به، فإنهم أيضاً معذورون في إنكارهم لأن زعمهم ليس إلا في حذف النظام، فإن عدم القصد إليه ربما يكون صحيحا ولكن سوء التدبير لذلك الغرض منقصة ظاهرة. و لا شك أن الكلام الذي ليس كلا على نمط متسق، بل يحتوي على عدة مطالب متفرقة بعضها عن بعض، مبنية على أسباب خاصة خارجة عن معنى الكلام كما ذهب إليه كثير من أكابر العلماء، لأبعد عن النص من كلام قصد به الوحدة من جهة النظام ثم كان عطل التمكن أو ضعيف الروابط. فلا شك أن هؤلاء المنكرين لم يقصدوا إلا تنزيه القرآن عن كل منقصة.

و لما كان ذلك — و لأسباب أخر — شرطنا أن نقنع بوجه واحد صحيح ظاهر ينتظم به الكلام. و لم نعده إلا أحسنها تاويلا، و أبلغها بيانًا و هذا مبسوط فى موضعه. و إنما ذكرناه ههنا من جهة ان اكثار الوجوه من أكبر الحجب على فهم النظام، بل عدم التمسك بالنظام هو أكبر سبب للولوع بكثرة التاويل، فان النظم هو الذى يوجهك إلى الوجه الصحيح. و السلف رحمهم الله لم يجمعوا وجوهاً بل كل منهم ذهب إلى أمر واحد. و إنما شاع اكثار الوجوه فى الخلف. و هكذا يكون الأمر فى كل علم إذا كثرت الكتب و دون العلم و سهل الطريق فيحرصون على التبحر و يرفضون الرسوخ و التحقيق فى فن واحد، فيحسبون تكثير الأقاويل و المذاهب علماً وهم خلو عنه كما قيل: «طلب الكل فوت الكل». فمن اشتغل بالتفسير وجده بحراً متلاطما من الاقوال. وحفظه هذه الاقاويل يمنعه عن مسالك النظام من جهة انفاد فرصه ومله. و من جهة أن النظام قد خفى و ضل عنه فى شتات الوجوه الكثيرة. بل لو رفض هذه الكتب كلها و أخذ طريق السلف رحمهم الله فتدبر القرآن و التمس المطابقة بينه و بين السنة الثابتة لكان أقرب إلى معرفة النظام و صحيح التاويل.

و الرابع: و هو قريب من الثالث، أن تحزب الامة فى فرق وشيع قد ألجأهم إلى التمسك بما يؤيدهم من الكتاب، فراق لهم تاويله الخاص سواء كان بظاهر القول أو باحدى طرق حمل الكلام على بعض المحتملات. و لا يخفى أن غلبة رأى و توهم يجعل البعيد قريباً، والضعيف قويا، وكذلك يفعل كل فريق. فلكل حزب تاويل حسب مذهبه، و حينئذ لا يمكن رعاية النظام، فان الكلام لابد له من سياق و لابد لأجزائه من موقع يخصه.

فلو رعوا النظام ظهر ضعف ما يميله و يجذبه إلى غير مساقه كما أن الكلمة الواحدة ربما تكون مشتركة بين المعانى المتعددة ولكن إذا وضعت فى كلام منع موقعها و قرائنها من كثرة الاحتمالات و تعين منها ما وافق معنى الجملة و التأم به . و مع ذلك ليس كل نظام جديراً بالأخذ ، بل ما هو أحسن تاويلا . فربما يلتئم الكلام و يتسق النظام بتاويل ركيك ساقط فهذا مما يفتح بابا لدخول الأباطيل و الهوى و يخالف النظام الصحيح العالى الذى يظهر به رفيع مكان التنزيل كما وصف الله به كتابه فى مواضع لا تحصى كقوله تعالى : . . . . (بياض فى الأصل)

٧ — الزيادة على فهم من غير نظام ، من وجوه .

تذكرة :

(١) التقريب بين الدعوى و الدليل . فمن فرق بينهما لم يطلع على دليل فكيف بالتقريب ؟

(٢) الايقان بما قد استدل عليه . (أو كالذى مر على قرية ألخ)

(٣) المصداق . فمن لم يعلمه خفى عليه ما نيط به من الأمور كما فى الأمثال الثلاثة ، و اخراج المؤمنين من الشك أو الضعف إلى اليقين و الرسوخ ، و اخراج الكافرين من النور إلى الظلمة ، أو كما لعن اليهود على كتمانهم أمر المروة .

(٤) وجوه البلاغة من حسن التقسيم و الاشارة و براعة الاستهلال و حسن الترتيب وغير ذلك .

(٥) زيادة الشوق و المحبة و اللذة . فانما يحصل ذلك بقدر زيادة

المعرفة بمحاسن الكلام و حسن النظام و قوة الاستدلال و من فاته ذلك يقلق ويتبرم به و لو أخفاه فهو على جانب من العمى .

(٦) الاتيان بما أمر الله من التدبر و التفكر و التذكر .

٨ — مأخذ النظام هو القرآن نفسه

إن سألتنى عن ماخذ هذا العلم قائلا بأنك تصديت لأمر عظيم و ألقيت دعوى كبيرة ، فزعمت أن فهم القرآن لايمكن من غير معرفة نظامه ، و كل ما ذكرت من الحاجة الشديدة و الفوائد الكثيرة و المطالب العالية المطوية فى نظامه ، فهل تدعى وحياً أو الهاماً ؟ فتقوم بنبوة جديدة بين لنا

من افاداته رحمه الله :

فى كون القرآن دليلا على نفسه

« قد أسفر الصبح لذى عينين »

قال تعالى : (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب) (سورة الرعد آية : ١٩) أى من هو من أهل النظر والمعرفة بالبصيرة ليس كمن لا نظر له ولا عقل فهو كالأعمى . وذلك أن الله تعالى أنزل ما هو الذكر فيه من يتذكر وإنما يتذكر و يعتبر من له لب و فهم فهؤلاء الغافلون لا يتذكرون فهم كمن هو أعمى وأحتيق له النور فلا يراه و دل هذا الكلام على أن القرآن لا يحتاج إلى دليل خارجى بل هو دليل على نفسه كالنور لأهل البصر

من افاداته رحمه الله :

الدلائل على وجود النظام من القرآن

نظم القرآن نفسه يدل فى أكثر السور على رعاية أمور لا توجد فى كلام جمع على غير رعاية النظم ① فمنها رعاية الفواصل كما نجد فى سور عديدة طوال .
② ومنها ترجيع آية كما نجد فى المرسلات و الرحمن .
③ ومنها انتقال الآيات على أسلوب ظاهر مثلا فى سورة التوبة : (التائبون و العابدون ... منهم من نحب ألخ) (سورة التوبة آية : ١٢٧) ترى عدة آيات بعدها متصلة فى الأسلوب الظاهر .
④ ومنها ربط المعانى على وجه بين كما ترى فى القصص و بعد هذه الأمور وجوه أخر أقوى و أقرب دلالة و لكنها مستنبطة من جهة المعنى فتحتاج إلى امعان و تأمل .

أولا محلك و نيتنا عن مقام دعوتك حتى تهيأ لسماعك .

فأعلم هداك الله و أرشدك أنى رجل قليل البضاعـــة فى العلم و فى نفسى أحقر من أيسر ما ظننت . إنمـا هو القرآن الحكيم نفسه قد دل على حسن نظامـــه ، فلا أطلب منك تقليداً أو حسن اعتقاد فىّ . تامل فى دلائل القرآن فإنها معظم ما استدللنا به و سنذكر لك طريقنا فيه فان اطمأن بها قلبك فاشتغل بهذا العلم و إلا فاطوه على غره . كل أمرئ ميسر لما خلق و كل يعمل على شاكلته . و إنى لم آل جهداً فى إيضاح ما يبين أن القرآن قد أنزل على أحسن نظام و ترتيب و مناسبة . . . . (بياض فى الأصل)

٩ — كيف يهديك القرآن إلى نظامه و أصوله ؟

و كل ذلك من باب حمل النظير على نظيره

القرآن قد دل على كونه منتظما لا عوج فيه و لا فطوراً من وجوه :

﴿الف﴾ : فمنها أن الآية الواحدة تجمع أموراً و ربما تتضمن جملا و لا يسوغ لمسلم أن يظن بالآية الواحدة أنها غير منظمة ، و التامل اليسير يكشف عن نظامها فهذا يصير مثالا و أنموذجا لأمور تجمعها جملة من الآيات . ثم هذا يصير مثالا لما يذكر فى جملات طويلة من السورة ثم تجد نظم سورة مع سورة أخرى مشابها لنظم آيات جملة واحدة و لنظم كلمات آية واحدة فن أقر بوجود النظم فى آية واحدة و لابد ، فلابد أن يقر بما يماثله فى عدة آيات أو عدة سور ، فيما جعل هـــذا التشابه بين القصار و الطوال دل بأحداهما على الأخرى .

﴿ب﴾ : ومنها أن الربط الذى وجدت فى موضع ، تجده فى عدة مواضع . ثم تفكر فى مناسبة هذا الربط، فتهتدى إلى حكمته مثلا ترى ذكر الصلوة مع الزكوة و الربو مع الصدقة و انفاق المال مع بذل النفوس و الصلوة . وترى الصبر مع الصلوة والجهاد و مجانبة الهوى . و ترى الصلوة مع الجود والنسك والنحر . وترى التقوى مع الايمان والشرائع و القسط وترى القسط مع التوحيد والمعاد والشرائع . و غير ذلك من الأمور التى يظهر التناسب بينهما بتامل. ثم تجد فى بعض المواضع ما يبين هذا التناسب . فهذا لايدلك على النظام إلا و يدلك معه على أبواب الحكمة ، و النظام لا ينفك عن الحكمة و هذا مبسوط فى محله .

﴿ج﴾ : و منها ذكر الأمور الظاهر المناسبة فى موضع ، ثم ذكر بعض هذه المتناسبات و ترك بعضها . فن علم المناسبة المذكورة ، فهمها فى موضع لم يذكر فيه ومن أسلوب القرآن أن يذكر أمراً واحداً ذا أطراف فى مواضع ، فيذكر بعض الأطراف فى موضع ، و بعضها آخر فى آخر . و نبين ذلك بالمثال :

قال عز من قائل حكيم فى الاستدلال بحكمة الخلق عـــلى المعاد :

(إن فى خلق السماوات و الأرض و اختلاف الليل و النهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياماً و قعوداً و على جنوبهم و يتفكرون فى خلق السماوات و الأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) سورة آل عمران، آية : ١٩٠ ـ ١٩١ أى إذا لم يكن خلق هذه باطلا وكيف يكون من قادر حكيم ؟ أم كيف يكون باطلا مع العجائب التى فيها؟ فكيف يكون أشرف خلقه و هو الانسان عبثاً ؟ كما صرح به فى مواضع

فلابد من يوم جزاء وفصل ، فحينئذ هتف العبد المتفكر قائلا : (سبحانك) بما تذكر من جلاله و عظمته و حكمته و رحمته . (فقنا عذاب النار) بما تذكر من لزوم الجزاء اللازم من حكمته .

ثم ترى نظير ذلك حيث قال تعالى و تقدس : (أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات و الأرض و ما خلق الله من شئ و أن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يومنون) «سورة الاعراف، آية : ١٨٥ أى أو لم ينظروا فى أن كل شئ خلقه الله ، فانما خلقه لحكمة و غاية أجراه إليها و لذلك يبقى إلى مدة فانا نرى اختلاف الليل و النهار و الفصول و الاعمار . فتنشأ أمة و تذهب أخرى . كما قال تعالى : (ولكل أمة أجل . فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة و لا يستقدمون) «سورة الاعراف، آية : ٣٤ فكذلك عسى أن يكون قد اقترب أجلهم . فترى فى هذا الموضع قد أشار إلى ما أخفاه فى الموضع الأول و هو تذكر المعاد من حكمة تشاهد فى خلق السماوات و الأرض .

ثم ترى نظير ذلك حيث قال سبحانه و تعالى : (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شئ عجيب . أ إذا متنا و كنا ترابا ذلك رجع بعيد . قد علمنا ما تنقص الأرض منهم و عندنا كتاب حفيظ . بل كذبوا بالحق لما جاءهم ، فهم فى أمر مريج » أى فى شك من نبأ الحق و هو الجزاء والمعاد كما بينه و نبه على دليله فقال : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها و مالها من فروج . والأرض مددناها و ألقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . » أى هذه مظاهر القدرة و الحكمة بعظائمها و محاسنها . تفتح البصر و تنبه القلب

من كل عبد ينيب من رؤية الصنع إلى صانعه . ثم من جهة الاخلاق يومن برحمته كما بين بعد ذلك فقال : « و نزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات و حب الحصيد . و النخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) «سورة ق» آية ٢ - ١١ ففى هذا الموضع فصل من دلائل السماوات و الأرض ما اكتفى بالاشارة إليها فى الموضع الاول و الثانى و لم يذكر فى الثالث من تفصيل الانابة و التفكر ما أوضحه فى الأول و هذا الامر هو المراد فى وصف القرآن حيث قال تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى) « سورة الزمر ، آية : ٢٣ فجعله « مثانى » يأتى بأمر واحد مرة بعد مرة ، يشبه بعضه بعضا ، و العقل ينتقل من الشبيه إلى الشبيه فيتصور ما لم يذكر لانه قد تذكر من الشبيه و التفت إلى شبيهه الذى قد علم منه ما لم يذكر و ترى ذلك كثيرا فى القصص . . . . بياض فى الأصل)

١٠ — من فوائده تعليم الحكمة

تعليم أصول الفكر الفطرى

تذكرة :

ليست الحكمة إلا تربية النظر والاخلاق . و قد استعمل القرآن لذلك طرقا شتى :

(الف) : من جهة كونه متشابها ومثانى ، حث النظر على الانتقال من النظير إلى النظير .

فلابد من يوم جزاء وفصل ، فحينئذ هتف العبد المتفكر قائلا : (سبحانك) بما تذكر من جلاله و عظمته و حكمته و رحمته . (فقنا عذاب النار) بما تذكر من لزوم الجزاء اللازم من حكمته .

ثم ترى نظير ذلك حيث قال تعالى و تقدس : (أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات و الأرض و ما خلق الله من شئ و أن عسى أن يكون قداقترب أجلهم فبأى حديث بعده يومنون) «سورة الاعراف» آية : ١٨٥ أى أو لم ينظروا فى أن كل شئ خلقه الله ، فانما خلقه لحكمة و غاية أجراه إليها و لذلك يبقى إلى مدة فانا نرى اختلاف الليل و النهار و الفصول و الاعمار . فتنشأ أمة و تذهب أخرى . كما قال تعالى : (ولكل أمة أجل . فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة و لايستقدمون) «سورة الاعراف» آية : ٣٤ فكذلك عسى أن يكون قد اقترب أجلهم . فترى فى هذا الموضع قد أشار إلى ما أخفاه فى الموضع الأول و هو تذكر المعاد من حكمة تشاهد فى خلق السماوات و الأرض .

ثم ترى نظير ذلك حيث قال سبحانه و تعالى : (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شئ عجيب . أ إذا متنا و كنا ترابا ذلك رجع بعيد . قد علمنا ما تنقص الأرض منهم و عندنا كتاب حفيظ . بل كذبوا بالحق لما جاءهم ، فهم فى أمر مريج » أى فى شك من نبأ الحق و هو الجزاء والمعاد كما بينه و نبه على دليله فقال : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها و مالها من فروج . والأرض مددناها و ألقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . » أى هذه مظاهر القدرة و الحكمة بمقاطعها و محاسنها . تفتح البصر و تنبه القلب

من كل عبد ينيب من روية الصنع إلى صانعه . ثم من جهة الاخلاق يومن برحمته كما بين بعد ذلك فقال : « و نزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات و حب الحصيد . و النخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) «سورة ق» آية ٢ - ١١ فنى هذا الموضع فصل من دلائل السماوات و الأرض ما اكتفى بالاشارة إليها فى الموضع الاول و الثانى و لم يذكر فى الثالث من تفصيل الانابة و التفكر ما أوضحه فى الأول و هذا الامر هو المراد فى وصف القرآن حيث قال تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى) « سورة الزمر » آية : ٢٣ فجعله « مثانى » يأتى بامر واحد مرة بعد مرة ، يشبه بعضه بعضاً ؛ و العقل ينتقل من الشبيه إلى الشبيه فيتصور ما لم يذكر لانه قد تذكر من الشبيه و التفت إلى شبيهه الذى قد علم منه ما لم يذكر و ترى ذلك كثيراً فى القصص . . . . بياض فى الأصل)

١٠ — من فوائده تعليم الحكمة

تعليم أصول الفكر الفطرى

تذكرة :

ليست الحكمة إلا تربية النظر والاخلاق . و قد استعمل القرآن لذلك طرقا شتى :

(الف) : فمن جهة كونه متشابها ومثانى ، حث النظر على الانتقال من النظير إلى النظير .

(ب) : و على تصور البعض من بعض آخر . و هما من طرق الفطرة الأولى ينتقل العقل من العلامة إلى ذى العلامة و من المثل إلى المثل .

(ج) : حذف بعض المقدمات ، فربمــا يذكر الطرفين و يترك الوسط . و ربما يكتفى من الأمرين باحدهما . و ربما يكتفى من أربعــة أمور فيها مزدوجان بأمرين فيأخذ من كل مزدوج زوجا . و هذا يحث الاستدلال باللزوم . و هو الأصل الأعظم فى فطرة العقل و يقتضى التدبر و التفكر و قد جاء فى كلام العرب قبل الاسلام . . . . (بياض فى الاصل)

من افاداته رحمه الله :

الاستشهاد على النظام بالنظائر .

قال الله تعالى : (الله لا إله إلا هو ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه و من أصدق من الله حديثا) سورة النساء آية : ٨٧ أى أشهد الله على هذا القول و ذكر فى الاشهاد كونه إلها واحدا و ذكر قبل هذا أنه على كل شئ حسيبا . و الربط بين هذه الجملات يظهر بتأمل .

أهل تظن أن هذه الفقرات نزلت على أوقات مختلفة لأسباب مختلفة ؟ أو أنها ضمت من غير ربط ؟ فان كان بينها ربط فلابد من النظر فيه . و لا يعجزه قصورا فهامنا . فإن الآية مفيدة و ظاهرة فيما تسوق إليه . و إنما التدبر يجلى أمرا زائدا . ألا ترى ان الله خلق الأشياء و لم يزل الانسان ينتفع بها و لكن الانتفاع يزداد بزيادة العلم و يزداد بزيادة الفكر فهكذا الأمر فى كلام الله تعالى .

المثال الثانى : و هو فى أمر كلى . و ذلك أنك تجد الكليات المقولة ربمــا تعقب ما تدخل تحتها من الوقائع على سبيل التمثيل و التشبيه فى سورة واحدة . ثم ترى السور قد ضمت بعضها ببعض على هذه الجهة فلا ترى فى سورة الشمس و الفجر الوقائع بعد الكلية و هكذا ترى فى السور الطوال ثم ترى مثل ذلك فى ضم سورة الانفال و البراءة بما قبلها . . .

١١ — النظم يهدى إلى الحكمة

(١) الكلام لا يلتئم بعضها ببعض إلا بجامع يشتمل عــلى اشتات المطالب و الجامع يكون أعلى و أوسع، كما أن الانسان يشمل الافراد التى تحته و هكذا يعرج من الاخص إلى الاعم . فمن طلب النظم لابد ان ينظر فوق ما يراه حتى يجد جامعا عاما . و هذا الطلب هو سلم الحكمــة و لا يتعاطى ذلك إلا ذو بصيرة و ذكارة . و لولا ذلك لمــا جعل الله نظام كلامه محل التدبر و التفكر . فاما كونه موقع التدبر و التفكر فمبسوط فى موضعه . و إنما المقصود ههنا أن الله تعالى راعى ذلك ليعلمهم الحكمة و يرشحهم للملكة هى أصل العلم والمعرفة لا، نفس المعلومات، فانها منحصرة محدودة . ثم العلم بها ليس فى شئ من ملكة هى المقصود . وقد أشار إلى كون القرآن ، عليا ، لاشتماله على الحكمة حيث قال تعالى : (و إنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) ، ، سورة الزخرف آية ٤ ،

(٢) من مارس التامل فى نظام القرآن كاد أن يصير ذلك دأبه فى أمور أخر و من ذلك ما هو أهم فنذكر بعضها :

(الف) : لكل دين و شريعة ، نظام و أصول تدل عــلى درجتها فى محلها من الفطرة و القسط وسعة البركة . فمن تأمل من هذه الجهة فى الديانات و القوانين اطلع على وجه صحيح من حكمــة التشريع و الحق و الباطل فيها .

(ب) : لكل قوم و ملة ، آداب و أصول يجرون عليها . و لابد لذلك مــن مناسبة بين طبائعهم و أصولهم و آدابهم . و بهذه المناسبة تستدل

باحدى المتناسبات على اخواتها .

ح : و من أمثلة ذلك أن الذين أنكروا بالنظم فى القرآن لم يقنعوا بذلك ، فان هذا الانكار كان بناؤه على عدم التمييز بين الحق والباطل فانهم هم الذين قالوا بمثل ذلك فى أمور أخر ، فابطلوا الحكمة ، و عطلوا العقل ، و أنكروا بالعدل . فكل ذلك من منشـأ واحد و هو الخلق الذى غلب عليهم من العكوف على الظاهر ، و الخوف من أن يخدعهم العقل ، فاتقوا باغماض عيونهم عما خافوا أن يخطف أبصارهم .

ما جعل الله الرهبانية والتعطل فى شئ من هذا الدين الفطرى الكامل فليس يمدح أن نعطل العقل و هو أكبر النعم . كما أنه لا يمدح أن نعطل السمع و البصر . نعم لكل قوة مجال و منتهى فلا ينبغى استعمالها حيث لامجال لها . وليس هذا موضع هذا البحث وإنما المراد محض التمثيل لنزوع الشئ إلى مثله .

١٢ — فى نظم القرآن دليل على نظم الديانة كلها

القرآن هو الاصل للاسلام و الايمان أى الشرائع و العقائد . قال تعالى : (و كذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب و لا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم)سورة الشورى آية ٥٢ وإذا كان القرآن على المطابقة التامة للدين، صار النظر فى نظامه باعثاً على النظر فى الشرائع والعقائد . فما كان أصلا و أساساً . نه القرآن على كونه كذلك . فاذا تدبرت فى القرآن هديت إلى حكمة الدين و نظام أموره .

مثلا : القرآن دل بنظمه على أن الشكر (١) هو أصل الايمان و يندرج تحته الشرائع كلها . و ذلك بان من رأى آيات الرحمة و الحكمة و القدرة ، عرف الرب تعالى بكونه رحيما ، حكيما ، قادراً ، عزيزاً ، عادلا ، فشكره وحمده وطلب رضاه ، وخاف سخطه وعذابه ، وحينئذ تحقق ايمانه وعبوديته . قال تعالى : (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم و آمنتم و كان الله شاكراً عليما)سورة النساء آية ١٤٧ فدل على كون احساس الشكر مقدما على الايمان بالرب الرحيم . وإذ كان كذلك جعل الله سورة الحمد فاتحة كتابه و كذلك جعل الحمد أصل الصلوة و فاتحة الشرائع و الاسلام .

ثم لما كان للشكر مظاهر و مواقع ، و كان له ركنان : تحديث بالنعمة و تحميد للمنعم . و الثانى نذر و قربان مما رزق . صار الاحسان إلى الخلق و الانفاق فى سبيل الخيرات جانباً آخر للصلوة . فصار منع الزكوة أقرب إلى الكفر كترك الصلوة . و هكذا فهم أبوبكر رضى الله تعالى عنه قبل سائر الصحابة . و إنما فهم ذلك من نظم القرآن كما ذكر ، و قد صرح المسيح عليه السلام بذلك فقال فى رواية مرقس بعد وصية الاخلاص فى التوحيد والاحسان إلى الخلق : « ليس وصية أخرى اعظم من هاتين » و فى رواية متى : « تحب الرب الهك من كل قلبك و من كل نفسك و من كل

من افاداته رحمه الله :

(١) فى البخارى : « ما أعطى أحد عطاء خيراً و أوسع من الصبر » أقول اما الشكر فهو لايكون إلا بالصبر . ثم الشكر من المنعم عليه والصبر من المصاب . و من صبر ، فكيف لايشكر ؟ أما التقوى فهى عيال على الصبر من وجه وبينهما تلازم من وجه . فان معرفة الرب تعالى بصفة الرحمة و الانعام هى أول المعارف . فاول ما ينشأ هو الشكر و معه محبة الرب تعالى و التوحيد الخالص له ، وبعد ذلك يبرز صبره على المصائب . فكان الشكر والصبر معا فى الفطرة ولكن بروز الشكر كان أقدم و بروز الصبر على أثره .

تكرك، هذه هى الوصية الأولى والعظمى، والثانية مثلها، تحب قرينك كنفسك. بهاتين يتعلق الناموس كله و الأنبياء، أى الفرائض و السنن. فهذا عين ما دل عليه القرآن نصاً و نظماً.

و بالجملة إذا نظرت فى نظم الآيات و مطالبها، و السور و عمدها هديت إلى نظم الشرائع و الأحكام . . . . . .

كما أنك إذا تأملت فى الشكر علمت أنه مبنى الإيمان بالرب الرحيم، وكذلك إذا تأملت فى الصبر هديت إلى أنه أساس الإيمان باليوم الآخر، و هذان ركنا الايمان وأما الركن الثالث و هو الإيمان بالرسالة، فجانب منه يندرج تحت الايمان بالرب الهادى الرازق وجانب منه يندرج تحت الإيمان بالرب العادل الحكيم.

و إذا علمت ذلك، هديت إلى أن الشكر و الصبر يحيطان بجميع الشرائع وخصال الخير. و ترى الدين كله ذا جانبين: جانب منه من الشكر و جانب منه من الصبر، و وسائط آخذة نصيبها من كليهما. فالصلوة و الزكوة و الخضوع و بر الوالدين و الطاعة و ايتاء ذى القربى و الاحسان العام من الشكر. و الصوم و الجهاد و العفاف و الحلم و ترك الفضول و التوكل والخشية والتقوى من الصبر. كأنّ الشكر والصبر قائدان لجنودهما.

ثم ترى كل واقعة، إما تدعوك إلى شكر أو إلى صبر قال تعالى: (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) سورة ابراهيم آية: ٥

و أعلم أن الشكر انسب بالاوامر و الصبر بالنواهى. و إنما قدم الصبر على الشكر لكون التقوى محلية للقلب، فغير الآق الظالم يحرم الحس بالشكر. و من بعض الملاحظات للشكر تقدم على الصبر، فان الشكر يهدى

إلى الطاعة و الصبر تثبيت.

وأعلم أن الشكر يتعلق بالماضى والحاضر والصبر يتعلق بالحاضر والمستقبل.

واعلم أن الشكر نسيب النعمة و اللين واليسر، والصبر نسيب المصيبة و الشدة و العسر، فهذه ملاحظات التقابل بينهما. و بقى النظر فيما يتعلق بالصبر على حدته و فيما يعمهما فاقول و بالله التوفيق:

اعلم أن من الصبر ما يكون على مصيبة زائلة، فالصبر فيها على الصدمة الأولى.

و من الصبر ما يكون على إمساك النفس على التقوى فهى دائمة.

و من الصبر ما يكون لانتظار ما وعد الله.

ثم من الصبر ما يكف عن الشهوات.

ومنه ما يكبح العقل من العجلة. كما وقع بموسى عليه السلام فلم يصبر.

و منه ما يعالجه المصلح فلا يعرض عن المنكرين أو يصفح عن اذاهم. و ربما يفرط فى ذلك كما وقع بمحمد صلى الله عليه وسلم، فنعه الله تعالى عنه . . . فلم يخرج عن الصبر و لكن تاذى و كابد شدة الحزن، فصبر تحملاً. و أما موسى عليه السلام فكان أصبر على اذى أمته ولذلك أمر الله نبينا باتباعه فى ذلك . . . . (بياض فى الاصل)

من افاداته رحمه الله:

الصبر

نقل ثقة اختيار أمة العرب، هو الصبر المحض. و هو جماع الفضائل. و هو أحسن وراثة ابراهيم عليه السلام. و أرض العرب أصلح تربية هذه الفضيلة حتى ترى حيواناتها و أشجارها أصبر من بنى نوعها فى سائر الأرض.

و لما كان بناء الاسلام على الصبر، كان الاسلام أصلح لفطرة العرب و لما كانت أرض العرب صالحة لطبائع أهلها، إذا خرجوا منها أسرع الفساد إلى طبائعهم، فكان الترف هلاكاً. و لذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ما معناه: انى أخاف عليهم كثرة المال.

١٣ — الحاجات إلى معرفة النظام

(١) اعــلم أن الأمور (كما سبق) ترتبط إذا نظر إلى أمر عام شامل، و العام عال جامع. فيهدى النظم إلى معالى الأمور و حكمها و هذه المعالى هى ما لحقائق و الغاية. فمن لم يعرف النظم جهل الحقائق و الغايات و الحكم، فقل حظه فى طرق الاعتقاد و العمل.

أما العقائد: فقلة المعرفة بصحيحها ربما توقع فى سوء الظن بالرب تعالى و تصرفه عن النسبة الصحيحة بربه تعالى. و أما الاعمال: فلاك أمرها بالنيات و كلها متفرعة عن العقائد. فقلة المعرفة بحكمها و غايتها ربما تسد عليه باب الاتيان بها كما ينبغى، مثلا عدم الذكر فى الصلوة و عدم التقوى فى الزكوة. و ربما تصرفه عن وجهه بالكلية غير امتثال ظاهر العمل كما يقع فى أعمال الحج لكثير من الناس. و الله غفور حليم كما هو شكور عليم و هل يستوى الذين يعلمون و الذين لا يعلمون ؟

(٢) لما كان أكثر الحكم ومعالى الامور مخبوءة تحت دلالات النظم، فمن ترك النظر فيه ترك من معنى القرآن معظمه. و القرآن حكمة و نور، و قد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فى قوله: « الا انى أوتيت القرآن و مثله معه بل أكثر » (أو ما يشبه ذلك) و ذلك هو فهمه و هو بحر لا ساحل له. و منه فهم النظم فان المعانى تكثر بعد ذلك.

(٣) بعث الله نبينا لتعليم الحكم كما بعثه لتعليم الأحكام. و ربط الله التزكية بالحكمة و سماها خيراً كثيراً. فمن غفل عنها وقف دون غاية هذه البعثة و اكمال دينه و تعليم نبيه و لم يتبعه كما ينبغى. و ليس كل أمرئ

ينال غاية المطلوب. و لكن ينبغى لنا السعى و يعطى الله فضله حسب ما سعى و استعد.

(٤) إنا وقعنا فى اختلافات شديدة فى تاويل القرآن، ثم اختلفت عقائدنا و قلوبنا و الفتنا. و النظم يرد الأمور إلى الوحدة و ينفى تشاكس المعانى. والاتفاق والايتلاف اعظم مطلوب للنيل إلى أعلى مدارج الانسانية.

(٥) القرآن أفضل آيات شاهدة على نبوة خاتم النبيين، و أبقاها و ابينها و أهداها ونعلم بالبداهة أن حسن الترتيب من أكبر محاسن الكلام البليغ، و نحن نوقن باعجاز القرآن، فهل نرضى بأن يكون عاريا عن حسن الترتيب ؟ و كيف نترك النظر فى فهم رباط معانيــه و اعتناق بعضها ببعض، و اتقان ترتيبها ؟ الاتراك لا ترضى بأن تجعل كلام عاقل رزين خالياً عن ترتيب فيه ؟ و ربما يحط عندك قدر خطيب مصقع أتى بفنون من البلاغة و أثّر فى النفوس بجلالة بيانه، لمحض أنه ذهل عن ربط الكلام، فهام من واد إلى واد، و هو معذور، بأنه ألقى الخطابة عفواً و لم يعمل فيها النظر و الروية و ليس ذلك إلا لأن الكلام البليغ لا يحتمل سوء الترتيب. فان كان الأمر كذلك أليس على الموقن باعجاز القرآن أن يثبت حسن نظمه و احكام ترتيبه ؟ قال الرازى رحمه الله تعالى فى تفسير سورة الانعام تحت آية: (وإذا جاءك الذين يومنون بآياتنا) بعد ذكر اختلاف الروايات فى سبب نزولها، فقال رحمــه الله تعالى: « ولى ههنا إشكال، و هو أن الناس اتفقوا على أن السورة نزلت دفعة واحدة، و إذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال فى كل واحدة من آيات السورة أن سبب نزولها هو الأمر الفلانى بعينه، وقال رحمه الله

أصرح و أشد من ذلك في تفسير حم السجدة تحت آية (و لو جعلناه قرآناً أعجمياً الآية) .

(٦) من أجل ما تمسك به الطاعنون في القرآن أنه اسوء الكلام ترتيباً . . . . (بياض في الأصل)

من افاداته رحمه الله :

المنكر للنظم ، لا محيص له من أحد ثلاثة أقوال :

فاما أن يقول بان السورة ليست إلا آيات جمعت بعد النبي صلى الله عليه وسلم من غير رعاية ترتيب كما وجدت في أيدي الناس . و إما أن يقول بانها اختل نظمها ، لما أن الآيات التي ادخلت بين الكلام المربوط ، قطعت النظم . فكلا القولين ظاهر البطلان ويبنى على الجهل الفاحش بجمع القرآن و ترتيبه و مواقع الآيات المدنية و المتصلة بعد النزول الأول .

أما الأول فلأن السور كانت مقررة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم و أمر الله النبي بالتلاوة حسب تلاوة جبريل كما صرح به القرآن . و قد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم الناس السورة بالتمام ويسمع منهم فهذا القرآن المجموع في المصاحف ليس الا على نسق جاء به جبريل عليه السلام وقرأه على النبي في تلاوته الأخيرة ، لو صح ما زعم لم أمر الله نبيه باتباع قراءة جبريل ؟ و لم كان يأمر بوضع الآيات بمواقعها الخاصة ؟

و أما الثاني فلأن الآية المدخولة لا تقطع النظم إذا ادخلت في موضع يليق بها ، و الآيات المدخولة كلها مطلوبة الربط بما قبلها أو بعدها . و قد قال تعالى : (كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم عليم) و أما أن يقول بان الله تعالى لم يرد أن ينزل كلاما منظما ، كما لم يرد أن يجعله شعراً أو سجعاً أو غير ذلك مما يراعى فيه المتكلم من البدائع و التكلف إنما هو كلام أريد به الهداية و الحكمة فأنزل حسب ما اقتضت الأحوال من الدلائل و الشرائع . و ربما اجتمع المقتضيات من وجوه مختلفة فأنزل مراعياً تلك الوجوه المتباينة ، سورة جامعة لمطالب مختلفة ، احتيج اليها في زمان نزولها و الأحوال و الحوادث و الاعتراضات تجمع من علل متفاصلة في زمان واحد . فالسورة تجمع جملا كلها تكون على حدتها في غاية الحسن و النظام و أما بمجموع هذه الجمل فلا معنى لالتماس النظام فيه . و قد بين ذلك بعض أكابر العلماء بأقوى بيان ، لو لا رعاية النظام فيه لما وجدنا الكلام الطويل مبنياً على اسلوب جامع أو كلمة ناظرة إلى كلمة سابقة بعيدة عنها . مثلا ، هدى للمتقين ، قد سبق في أول سورة البقرة ثم جرى الكلام حتى جاء إلى ذكر اهل التقوى فجاء قوله تعالى : اولئك الذين صدقوا و اولئك هم المتقون ، ناظراً إلى ما سبق ، و التأمل في نظم ما بينهما و في ما بعد ذلك يبين ان ذلك ليس بمحض الاتفاق و لذلك امثلة كثيرة أوضح مما ذكرنا .

١٤ — الوسائل إلى معرفة النظم في القرآن (١)

أهمها : التدبر

كما أن النظر في اشتات أمور العالم من غير تأمل في تناسب بعضها ببعض ، يعمي عن الحكمة التي فيها و يحمل على الانكار بالمدبر الحكيم ، فكذلك من قصر النظر على الحوادث الخارجية أو الوقائع التاريخية و لم يتفكر في عللها و آثارها في النفوس ، لم يهتد لما فيها من المنافع ورعاية الحكمة . فهؤلاء إما ذهبوا إلى الانكار بالاله مطلقاً و إما إلى ما هو قريب منه و هو القول بالجبر و نفي رعاية المصالح . فان ذلك يتضمن انكاراً بالرحمن الرحيم .

(١) لا شك في أن الكلام يتضمن أساليب شتى ، فمنها ما لابد من الاحاطة بها لمعرفة النظم ، و هي : الحذف ، و المجاز ، و تبديل المحل ، و الاعتراض ، و الالتفات ، فينبغي للطالب معرفة النظم النظر في وجوه هذه الأساليب .
(ب) الكلمات وجوه من المعاني و قصة .
(ج) الربط طرق من نسبة التقابل ، و نسبة العموم و الخصوص ، و بيان المجمل ، و دفع دخل مقدر ، و نسبة التشابه ، و نسبة الأصل والفرع وغير ذلك كما هو مبسوط في موضعه (منه رحمه الله تعالى) (١) .

(١) تفصيل هذه المباحث في كتابه الأساليب ، ولكنه غير مطبوع سيطبع عن قريب إن شاء الله تعالى . (الجامع)

من افاداته رحمه الله :

أمثلة ظهور التأويل من رعاية النظم

نورد عليك أمثلة لترى كيف خفي التأويل على المفسرين و اختلفوا فيه . ثم رعاية النظم جعلته واضحا ، و أيضا أن العلماء رجحوا المعنى الذي يوافق بالنظم .

(١) في سورة النور قوله تعالى : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً » قال الرازي رحمه الله : « فيه وجوه (أحدها) و هو اختيار المبرد و القفال ، لا تجعلوا أمره إياكم و دعاءه لكم كما يكون من بعضكم لبعض ، إذ كان أمره فرضا لازما . و الذي يدل على هذا قوله عقيب هذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ، (وثانيها) لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضا ،

فكما أن النظر فى الأنفس و الآفاق و مجارى أحوالها على قسمين ، فكذلك النظر فى كتاب الله المتلو فمن نظر فى مطالب الآيات على حدتها و لم يتأمل فى مناسبة أجزاء السورة ، عميت عليه الحكمة و حسن نظامها من جهة البلاغة و الاستدلال . بل لم يجد مخرجا عند احتمال المعانى ، بل ربما اختار التأويل الباطل لما تعلق به بعض رأى زائغ أو مذهب مرجوح أو عقيدة فاسدة . فكان فى ظلمات بعضها فوق بعض . و أشد وأفظع من كل ذلك أنه يفتح للمبطلين و المبدعة أبواباً لتأويلاته الفاسدة . فترى منهم من يأول القرآن ، فيضل الناس بمحض رأيه ، أو يمنى نفسه أنه أعلم بحقائق الأمور و أسرار الدين . و لكن من تدبر فى القرآن و نظامه الحكيم ، اطلع على حسن نظامه ، و اعجاز بلاغته ، و دقائق حكمته ، و فتح عليه باب عظيم من المعانى ، و كان على نور عند احتمال التأويلات ، فاختار ما هو الحق الواضح و لم يتمجمج فى نبذ الباطل و نورد بعض الأمثلة ليتضح لك الأمور التى ذكرناها . . . .

. . . (بياض فى الأصل)

★ يا محمد يا أبا القاسم . و لكن قولوا يا رسول الله يا نبى الله عن سعيد بن جبير رضى الله عنه ، (و ثالثها) لا ترفعوا أصواتكم فى دعائه و هو المراد من قوله ، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، عن ابن عباس رضى الله عنه . (و رابعها) احذروا دعاء الرسول عليكم إذا أسخطتموه فإن دعاءه موجب و ليس كدعاء غيره و الوجه الأول أقرب إلى نظم الآية » .

قال الفراهى و لكن المعنى أن الرسول إذا دعاكم فلابد أن تأتوا إليه ، إن كان لكم أو عليكم ، و تسمعوا و تطيعوه و لا تذهبوا قبل أن يقضى الرسول ما لأجله دعاكم . فإن مخالفة أمره إثم . وأول المبرد و القفال أرادا هذا المعنى ولم يفهمه الرازى . فإن الدال على هذا المعنى تمام هذه الآية و هى : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) و الدليل الواضح على هذا المعنى ما مر من آيات ٤٧ - ٥٢ فى هذه السورة .

(٢) . . . . . .

يستدل الخاف

١٥ — إن للقرآن ظهراً و بطناً

قال الله تعالى : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) سورة البقرة آية : ٢٩ » و نحن نعلم أن فى الأرض أشياء بها نتمتع ، و أشياء ما كنا نتمتع بها لجهلنا ، و لكن زادنا الله علماً فانتفعنا بها . و كم من الأشياء بقى مخفية فوائده ، فنستزيد يوما فيوما معرفة بها ، فنتمتع بها و قد بقى كثير . و كذلك العلوم نستزيد منها يوما فيوما إلى ما شاء الله .

فكذلك القرآن وصفه الله تعالى بالابانة و كونه نوراً و تفصيلا . و مع ذلك وصفه بكونه محل التدبر و التوسم و التفكر ، و أنت تعلم أنه كذلك ، فانه لم يزل نافعاً . هادياً ، ظاهراً و مع ذلك محلا لغوامض الحكم و منبعاً لدقائق الأدب . و ما من علم إلا فيه التدرج من المعلوم إلى المجهول بالغاً ما بلغ ، فكذلك قال الله تعالى : (و الذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم) » سورة محمد آية : ١٧ » أى زادهم علماً و عملا .

فالقرآن له ظواهر ، بها تهتدى فيتيسر ما وراءها ويصير الباطن ظاهراً. و هكذا تعرج من درجة إلى درجة ، و ما تنقضى عجائبه . و لكنا علمنا أن الظواهر تمهد لما بطن ، و لا نحرف الكلم عن مواضعها و لا نجعل للقرآن معانى خلاف الظاهر ، و لكن ينجلى أمور فامور . كما أنك قرأت بيتاً و علمت معناه ، ثم تفكرت فوجدت فيه صنائع و بدائع . ثم تفكرت فعلمت أن المعنى أصدق شئ و أنفع من كثير من الحكم ، فكلما تدبرت ما وجدت شيئاً خلاف الأول و لكن زيادة ، و ما بدلت معنى فهمته أولا ، و لكن انكشفت لك محاسن البيت .

أو كما رأيت قصراً من بعيد متناسب الأركان ، ثم قربت منه ، فكلما

فكما أن النظر فى الأنفس و الآفاق و مجارى أحوالها على قسمين ، فكذلك النظر فى كتاب الله المتلو فمن نظر فى مطالب الآيات على حدتها ، لم يتأمل فى مناسبة أجزاء السورة ، عميت عليه الحكمة و حسن نظامها من جهة البلاغة و الاستدلال . بل لم يجد مخرجها عند احتمال المعانى ، بل ربما اختار التأويل الباطل لما تعلق به بعض رأى زائغ أو مذهب مرجوح أو عقيدة فاسدة . فكان فى ظلمات بعضها فوق بعض . و أشد وأفظع من كل ذلك أنه يفتح للمبطلين و المبتدعة أبواباً لتأويلاته الفاسدة. فترى منهم من يأول القرآن ، فيضل الناس بمحض رأيه ، أو يمنى نفسه أنه أعلم بحقائق الأمور و أسرار الدين . و لكن من تدبر فى القرآن و نظامه الحكيم ، اطلع على حسن نظامه ، و إعجاز بلاغته ، و دقائق حكمته ، و فتح عليه باب عظيم من المعانى ، و كان على نور عند احتمال التأويلات ، فاختار ما هو الحق الواضح و لم يتمجمج فى نبذ الباطل و نورد بعض الأمثلة ليتضح لك الأمور التى ذكرناها . . . .

. . . (بياض فى الأصل)

★ يا محمد يا أبا القاسم . و لكن قولوا يا رسول الله يا نبى الله عن سعيد بن جبير رضى الله عنه ، (و ثالثها) لا ترفعوا أصواتكم فى دعائه و هو المراد من قوله ، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، عن ابن عباس رضى الله عنه . (و رابعها) احذروا دعاء الرسول عليكم إذا أسخطتموه فإن دعاءه موجب و ليس كدعاء غيره و الوجه الأول أقرب إلى نظم الآية ، ،

قال الفراهى و لكن المعنى أن الرسول إذا دعاكم فلابد أن تأتوا إليه ، إن كان لكم أو عليكم، و تسمعوا و تطيعوه و لا تذهبوا قبل أن يقضى الرسول ما لأجله دعاكم . فإن مخالفة أمره إثم. وأول المبرد و القفال أرادا هذا المعنى ولم يذهب الرازى . فإن الدال على هذا المعنى تمام هذه الآية و هى : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) و الدليل الواضح على هذا المعنى ما مر من آيات ٤٧ - ٥٢ فى هذه السورة ،

(٢) . . . .

١٥ — إن للقرآن ظهراً و بطناً

قال الله تعالى : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) سورة البقرة آية : ٢٩ . و نحن نعلم أن فى الأرض أشياء بها نتمتع ، و أشياء ما كنا نتمتع بها لجهلنا ، و لكن زادنا الله علماً فانتفعنا بها . و كم من الأشياء بقى مخفية فوائده ، فنستزيد يوما فيوما معرفة بها ، فنتمتع بها و قد بقى كثير . و كذلك العلوم تستزيد منها يوما فيوما إلى ما شاء الله .

فكذلك القرآن وصفه الله تعالى بالإبانة و كونه نوراً و تفصيلا . و مع ذلك وصفه بكونه محل التدبر و التوسم و التفكر ، و أنت تعلم أنه كذلك ، فإنه لم يزل نافعاً ، هادياً ، ظاهراً و مع ذلك محلا لغوامض الحكم و منبعاً لدقائق الأدب . و ما من علم إلا فيه التدرج من المعلوم إلى المجهول بالغاً ما بلغ ، فكذلك قال الله تعالى : (و الذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم) ، سورة محمد آية : ١٧ . أى زادهم علماً و عملا .

فالقرآن له ظواهر ، بها تهتدى فيتيسر ما وراءها ويصير الباطن ظاهراً.

و هكذا تعرج من درجة إلى درجة ، و ما تنقضى عجائبه . و لكننا علمنا أن الظواهر تمهيد لما بطن ، و لا تحرف الكلم عن مواضعها و لا نحمل للقرآن معانى خلاف الظاهر ، و لكن ينجلى أمور فأمور . كما أنك قرأت بيتاً و علمت معناه ، ثم تفكرت فوجدت فيه صنائع و بدائع ، ثم تفكرت فعلمت أن المعنى أصدق شئ و أنفع من كثير من الحكم ، فكلما تدبرت ما وجدت شيئاً خلاف الأول و لكن زيادة ، و ما بدلت معنى فهمته أولا ، و لكن انكشفت لك محاسن البيت .

أو كما رأيت قصراً من بعيد متناسب الأركان ، ثم قربت منه ، فكلما

فكما أن النظر فى الأنفس و الآفاق و مجارى أحوالها على قسمين ، فكذلك النظر فى كتاب الله المتلو فمن نظر فى مطالب الآيات على حدتها ، لم يتامل فى مناسبة أجزاء السورة ، عميت عليه الحكمة و حسن نظامها من جهة البلاغة و الاستدلال . بل لم يجد مخرجا عند احتمال المعانى ، بل ربما اختار التأويل الباطل لما تعلق به بعض رأى زائغ أو مذهب مرجوح أو عقيدة فاسدة . فكان فى ظلمات بعضها فوق بعض . و أشد وأفظع من كل ذلك أنه يفتح للمبطلين و المبتدعة أبواباً لتاويلاته الفاسدة . فترى منهم من يأول القرآن ، فيضل الناس بمحض رأيه ، أو يمنى نفسه أنه اعلم بحقائق الأمور و أسرار الدين . و لكن من تدبر فى القرآن و نظامه الحكيم ، اطلع على حسن نظامه ، و اعجاز بلاغته ، و دقائق حكمته ، و فتح عليه باب عظيم من المعانى ، و كان على نور عند احتمال التاويلات ، فاختار ما هو الحق الواضح و لم يتمجمج فى نبذ الباطل و نورد بعض الأمثلة ليتضح لك الأمور التى ذكرناه . . . .

. . . (بياض فى الأصل)

★ يا محمد يا أبا القاسم . و لكن قولوا يا رسول الله يا نبى الله عن سعيد بن جبير رضى الله عنه ، (و ثالثها) لا ترفعوا أصواتكم فى دعائه و هو المراد من قوله ، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، عن ابن عباس رضى الله عنه . (و رابعها) احذروا دعاء الرسول عليكم إذا اسخطتموه فان دعاءه موجب و ليس كدعاء غيره و الوجه الأول أقرب إلى نظم الآية ،

قال الفراهى و لكن المعنى أن الرسول إذا دعاكم فلابد أن تاتوا إليه ، إن كان لكم أمر عليكم و تستمرا و تقيموه و لا تذهبوا قبل أن يقضى الرسول ما لأجله دعاكم . فان عاقلة أمره الم داخل البرد و القتال أرادوا هذا المعنى ولم يذهب الرازى . فان الدال على هذا المعنى تمام هذه الآية و هى : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا . فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم) و الدليل الواضح على هذا المعنى ما مر من آيات ٤٧ - ٥٢ فى هذه السورة ،

(٢) . . . . . .

مستدل المهاف

١٥ — إن للقرآن ظهراً و بطناً

قال الله تعالى : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) سورة البقرة آية : ٢٩ . و نحن نعلم أن فى الأرض أشياء بها نتمتع ، و أشياء ما كنا نتمتع بها لجهلنا ، و لكن زادنا الله علماً فانتفعنا بها ، و كم من الأشياء بقى مخفية فوائده ، فنستزيد يوما فيوما معرفة بها ، فنتمتع بها و قد بقى كثير . و كذلك العلوم نستزيد منها يوما فيوما إلى ما شاء الله .

فكذلك القرآن وصفه الله تعالى بالابانة و كونه نوراً و تفصيلا . و مع ذلك وصفه بكونه محل التدبر و التوسم و التفكر ، و أنت تعلم أنه كذلك ، فانه لم يزل نافعاً ، هادياً ، ظاهراً و مع ذلك محلا لغوامض الحكم و منبعاً لدقائق الأدب . و ما من علم إلا فيه التدرج من المعلوم إلى المجهول بالغاً ما بلغ ، فكذلك قال الله تعالى : (و الذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم) . سورة محمد آية : ١٧ . أى زادهم علماً و عملا .

فالقرآن له ظواهر ، بها تهتدى فيتيسر ما وراءها ويصير الباطن ظاهراً و هكذا تعرج من درجة إلى درجة ، و ما تنقضى عجائبه . و لكنا علمنا أن الظواهر تمهيد لما بطن ، و لا نحرف الكلم عن مواضعها و لا نجعل للقرآن معانى خلاف الظاهر ، و لكن ينجلى أمور فامور . كما أنك قرأت بيتاً و علمت معناه ، ثم تفكرت فوجدت فيه صنائع و بدائع . ثم تفكرت فعلمت أن المعنى أصدق شئ و أنفع من كثير من الحكم ، فكلما تدبرت ما وجدت شيئاً خلاف الأول و لكن زيادة ، و ما بدلت معنى فهمته أولا ، و لكن انكشفت لك محاسن البيت .

أو كما رأيت قصراً من بعيد متناسب الأركان ، ثم قربت منه ، فكلما

ازددت قرباً ، ازدادت لك محاسنه من تركيبه و نقوشه ، حتى انك دخلت فيه فوجدت من الاثاث و المتاع ما تقربه عينك و تلذ به نفسك . فان سكنت القصر وجدت حجراته وضعت حيث يشرح له البال و تصلح بشؤنك فى الحر و القر . وترى فيها الحمامات و المضاجع و مواضع المعاشرة و الخلوة و مشاغل طيبة و مآكل لذيذة و مشارب سائغة عذبة . ثم بعد زمان وجدت فى بعض الزوايا باباً خفياً و عثرت على مفتاحه ، فنزلت فى خزينة فيها ما لا تحصى من الدر و الياقوت وكل ما يغلى سعره فازددت سروراً و غبطة حتى بلغت مالا عين رأت و لا اذن سمعت و لا خطر على قلب بشر . . . . (بياض فى الاصل)

من افاداته رحمه الله :

(١) ان الله تعالى جعل الظاهر سبيلاً إلى الباطن . و على هذا الأصل جعل للنظام ظواهر، تهدى إلى البواطن الغوامض . فاول ما تجلب الفكر إلى النظر فى استنباط النظام مواقع الصفات . فانها تتضمن أصولاً كثيرة . أظهرها : التعليل و الاستدلال ، ثم الاشتراك . .

(٢) القرآن كثيراً ما يدل على الأمور بالدلائل الصفاتية . و هذا الأصل يكشف علينا كثيراً من المعارف . مثلاً قوله تعالى : (تنزيل العزيز الرحيم) « سورة يس آية : ٥ » دل على ان تنزيل الكتاب يتعلق بالرحمة و هو ظاهر . و بالعزة و هو أن المنكر به يذوق العذاب . و إن ذلك من الضروريات لأن صفات الله واجبة الوجود . لعل هذا أنظر فيما يلى ، تجده بيانا لما قدمنا .

(٣) الرحمة مع الحكمة و هى الحق . . . . و يتغير لذلك قوله مرة : (العزيز الرحيم) و مرة : (العزيز الحكيم) و مرة : (العزيز الحميد) .

و فى كل سورة من حقيقة و حسن تخصيصها ، فلابد من التوجه إلى هذه الخصائص .

○ ○ ○ ○ ○

١٦ — بطن القرآن

(١) كان الله تعالى خالق كل شئ للانسان ، و لكن لم يجعل للانسان نصيباً منه إلا حسب ما سعى . فكذلك لا يكشف القرآن له إلا حسب ما تفكر . و القرآن واضح بين . لأنه أقرب طرق البيان ، كالشمس واضحة لذوى الأبصار . و الكفر عمى القلب كما بين الله فى مواضع . فمنها : (و إذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً) « سورة الاسراء آية : ٤٥ » فليلتمس المرء قلبه هل له الايمان الصادق بالآخرة ؟ فان وجد هناك الايمان وجد نوراً لفهم القرآن . وعلامة الايمان بالآخرة ، التزود لها و التبرم بالدنيا إلا من جهة التزود . فان من علم أنه ابن الملك ووارث السرير ، نبا به المضجع على المزبلة . و هذا ليس من بطن القرآن بل من ظواهره .

(٢) أما بطنه تحت الظاهر ، فهو من جهة أن الحق يوافق اخوته . و لكن الباطل له اضمحلال إذا جاء الحق المناح له . فان الله تعالى جعل لكل ظلمة نوراً كما أنه جعل لكل عقدة حلا . و لو لا غلبة الحق على الباطل لتسارى الأمر ، وكان الهين بل آلهة ، لاختلاف بعض الباطل بعضاً . و كانت الدنيا لعبة ، خالية عن كل حكمة و نظام ، بل فسدت ، لان الاباطيل لا صلح بينها ، فوجود الدنيا شاهد على حكومة الحق وثبوته ، و على وجود مبدءه و هو الحق العلى . و قد أخبرنا الله عن هذا فقال : (جاء الحق و زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) و بين هذا الدليل فى قوله : (و ما خلقنا السماء و الأرض و ما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه

من لدنا (أى لما أوقعناكم فى مصيبة) إن كنا فاعلين (أى هذا بعيد فى نفسه عنا) بل تقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق و لكم الويل مما تصفون . و له من فى السماوات و الأرض و من عنده لا يستكبرون عن عبادته و لا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لايفترون (أى الملائكة عباد الله فليس منهم اله و مشغولون بالتسبيح فليس لهم لعب) أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون (وكذلك حال من فى الأرض . و زاد على ذلك أنهم ينشرون فلا يصلحون للالوهية) لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) « سورة الانبياء آية : ١٦-٢٢ »

فهو الواحد المتصرف و له العرش . أى مركز حكومة السماء و الأرض كما قال : (وسع كرسيه السماوات والأرض) فانظر و تامل هذا الدليل

فاذا كانت الحقائق توافق بعضها بعضاً ، فكل حق ينكشف لك ، يكشف لك عن مناسبة جديدة بين هذا و بين ما عندك من الحقائق المعلومة من قبل . فكلما ازددت علماً واحداً ، ازددت علوما فى ما علمت . و هذا أمر مشاهد فى العلوم الدنياوية ، فانكشاف واحد يفتح أبواباً لانكشاف جمة ، و لذلك ولوع العلماء بكل حق و إن صغر . فانه عظيم لعظم ما يهدى إليه به .

(٣) فهكذا الأمر فى القرآن ، فانك كلما زدت علماً رفع لك ستر عن معانيه ، و ليس لاحد أن يأول القرآن بما لم يثبت من الحق و بقى عليه جلباب الشك . فانه سينقشع عما هو ليس بحق . و لذلك ترى حماقات من أوله إلى هواجس نفسه و احلام رأسه . و وجب التمسك بآياته البينات المحكمات و ما ثبت من الاخبار المستفيضة وكذلك وجب التمسك

بكل حق انكشف حق الانكشاف من أى علم كان ، لا بما يهدونه لحشية سحيهم ظناً و ادلالا به . فهو ليس إلا الرأى و التخمين و لا ينبئك مثل خبير . و من ههنا خشية العلماء الراسخين فى العلم ، فانهم لا يقلدون فلا يعولون إلا على ما تبرهن ، فيحجمون عما يتورط فيه المقلد المعجب ، بما راقه من زخارف الباطل ، و هم إلى القول « بلا اعلم » اميل ، كما سمعت من ابى بكر رضى الله عنه ومالك رحمه الله . فقال الأول : « أى أرض تقلنى و أى سماء تظلنى إن قلت بما لا أعلم » . و قال الثانى : « عندى من - لا أدرى - ما ، لو كان مثله عند أحدكم من الابل كان غنياً » . فبعد التجنب عن القول بالرأى المحض والظن الكاذب لم يبق إلا الحق الثابت الواضح .

(٤) فان علمت أن كل حق يوضح لك وجهاً آخر لمعانى القرآن مويداً ومثبتاً وموضحاً لما عندك من الحقائق الثابتة . وجب لأجل فهم القرآن طلب كل علم صحيح وهكذا هدانا نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث قال : « الحكمة ضالة المؤمن » و من أجل ذلك نرى الصحابة متهومين بالعلم وكانوا يسمعون ويسألون ما لا يعلمون . فان الله تعالى قسم نعمه بين الخلائق ، ليتعاونوا و يتعاطفوا . فان كان عندك در فاخر فكم عند الله أفخر منه ؟ كما قال تعالى (و فوق كل ذى علم عليم) و فى قصة موسى أبلغ نصح لك . وكذلك فى قصة آدم . فليس رجل و إن كان نبياً ، أرفع من أن يتعلم . و لا ينقص السوال من منزلتك بل يزيد فيها ، و ليس لك أن تقول عندى كفاية و حسبنا القرآن . نعم ، القرآن حسبك كما أن الله تعالى حسبك . ولكنك لست أنت حسبك من سائل ، سامع وليس للانسان إلا ما سعى . أليس نور الشمس حسبك ؟ ولكن أخرج من ظلمات ستور . فكل جبل

ستر و كذلك كل حق نور .

(٥) ثم فى القرآن دلائل إلى ما غمض و لذلك أصول :

١ : النظر فى نظمه ، فلا يربط الكلام إلا بأمر مشترك عام عال كالصلوة و الزكوة قارن ربطهما بالمحبة فاذا علمت أمهما هديت إلى الجامع لهما . ثم علمت أن الصلوة و الزكوة كلتاهما طهارة و هـذا بحث طويل تجده فى باب النظام .

٢ : الاستدلال بالتأمل فى جذر الكلمة تاما مستقلا ، مثلا أن الله تعالى سمى الزكوة صدقة و زكوة ، و الصلوة ذكراً ، أو سمى نفسه الحاً و صمداً والكفر، كفراً و الاسلام، اسلاما ثم أشار فى بعض المقام إلى حقيقة معنى اللفظ كما قال : « فلما اسلما و تله للجبين » و قال : « إما شاكراً و إما كفوراً » و كما سمى مكة ، بكة لكونها بناء ابراهيم عليه السلام .

٣ : الاستدلال باللوازم الشتى ، كما فعل أقليدس و هذا مثل المعراج ، تعرج من معلوم إلى مجهول .

من افاداته رحمه الله :

القرآن ظاهر من جهة جملاته و باطن من جهة نظم الجملات . فان فهم النظم مبنى على فهم مناسبة بعضها ببعض ، و ذلك كما ترى فى العالم .

و المناسبة تكون على وجوه ، و تدرك حسب افهام الناس ، و لابد من اختلاف ، لمدارج الناس فى العلم و قوة الاستنباط . فبعض الوجوه يظهر على بعض الناس ، و بعضها على بعض .

مثلا قوله تعالى : (و السماء بنيناها بأيد و إنا لموسعون) (فهذا ذكر سعة القدرة) والأرض فرشناها فنعم الماهدون (و هذا ذكر سعة رحمة و حكمة) و من كل شئ خلقنا زوجين (هذا ذكر حكمة و رحمة بما خلق الضدين و جعلهما دليلا على القدرة و الحكمة و الرحمة و التوحيد . فلا نجاة من آشاكل الظلمة و النور ، و الحزن و السرور ، و الظل و الحرور إلا بالفرار إلى الرب القدير الغفور فقال) (ففروا إلى الله انى لكم منه نذير مبين)

ومثلا قوله تعالى : (والفجر وليال عشر . . . إلى آخر السورة) فبين كيف ركب الله الخلق من الأضداد و جعل ذلك ليخلّ الانسان . حتى يصير صاحب النفس المطمئنة بالفرار إلى الرب و الصبر، لتكون عبداً تام العبودية و هى الاسلام ، فرضى الله عنهم و رضوا عنه .

٤ : النظر فى محل السورة . . . . (بياض فى الأصل)

١٧ — النظر فى الطرق

التى تكشف عن طرق الآيات و السور

قد سبق أن بين نظم أجزاء الآية الواحدة و بين نظم آيات السورة الواحدة و نظم بعض السور ببعض متشابهة . فالنظر فى طرق النظم التى بين أجزاء الآية يكشف عن طرق نظم الآيات و السور ، و هذه الطرق معلومة فى كلام العرب .

١ : فمنها زيادة الجزء بالتمام كما قال تعالى : (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) فهذا كلام تام ، لا ينتظر له بقية ولكن زاد بعده قوله :) فى الدنيا والآخرة) ومثله فى أول سورة الروم ، و هكذا تراه فى قصيدة لحسان رضى الله عنه .

و يشبه هذا من جهة رباط المعانى ، موقع سورة النجم ، فان فى السورة التى قبلها ، ختم الكلام بالتسبيح فى آخر الليل و تم المعنى ، ثم ذكر ادبار النجم الخاص أى هوى الثريا فى أول الليل .

و هذا الفهم يهدى إلى أمر أعمق من ذلك ، و هو نزول القرآن بعد التوجه التام إلى الملاء الاعلى و النظر فيه ، حتى يصل إلى ما هو فوقه كما عرج ابراهيم عليه السلام من النظر فى ادبار النجوم إلى معرفة الرب فاجتباه الله تعالى و جعله امام الأئمة .

و هكذا بعد الاتحاد بالكواكب فى التعبد لرب السماوات و الأرض بلغ محمد صلى الله عليه وسلم مقاما ، نزل عليه نور الوحى . فانه اشتغل

بالصلوة و تمسك بها و ألح عليها على رغم المانعين ، و عصاهم فى ذات الله و هم أعزة عليه ، فنزل عليـــه القرآن . و كان النزول فى ليلة القدر إذا (النجم هوى) أى فى أول الليل . لأن النزول كان فى ليلة القدر حين تجنح الثريا فى أول الليل قبه على الصلوة من أول الليل . و أما فى آخرها فكان من قبل لادبار النجوم . و هذا بحث طويل ، اشرنا إلى سمته أيان طريق نظم المعانى .

٢ : و منها ادخال الجملة المعترضة لفوائد كثيرة (١) . . . . . . (بياض فى الأصل) .

(١) تفصيلها فى كتابه الأساليب رحمه الله تعالى (الجامع)

من افاداته رحمه الله :

لمعرفة النظم فى الكلام عموما و فى كلام الوحى خصوصا أصول .

١ : الكلام الواحد إما جملة واحدة أو عدة جمل ، فيها موضوع واحد .

٢ : الجملة التامة تكون متصلة : إما بموضوع الجملة السابقة ، أو بجزء خاص من السابقة ، أو بموضوع يشملها .

٣ : الجملة التامة تكون متصلة بالتى قبلها أو بالتى قبل تلك .

٥ ٥ ٥ ٥ ٥

من افاداته رحمه الله :

(١) الكلام حقيقته الترتيب ، فلا ينفصل عنه .

(٢) النظم رباط الأمور لمقصد و غاية .

(٣) لابد من الوحدة فى النظم و إلا كان منتثراً .

(٤) النظم الكامل ما كان فيه رجع الأجزاء على ما كان أكثر فائدة ، و أقرب إلى المنفعة المقصودة من الشئ .

١٨ — الاستدلال بالآية

أى بأمر مشهود ، ينتقل منه إلى أمر آخر
بوجـــه من وجوه المناسبة

استدل ابراهيم عليه السلام على التوحيد بآية سقوط النجوم ، فعرج بها إلى حكمة عظمى . و استدل اسحاق المهندس بآية سقوط التفاحـــة على تجاذب الأجسام . و استدل غوتم بآية الآلام عـــلى أن الحياة شر ، فترك الدنيا و سعى للنجاة منها . و ما من شئ إلا و فيه آية على معرفة الرب . قال تعالى : (و ان من شئ الا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً) ، سورة الاسراء آية : ٤٤ ، أى حليم على غفلتكم فلا يعجل بالعذاب و أمهلكم لكى تتوبوا فيغفرلكم .

هذا الاستدلال يكون على وجوه مختلفة :

١ : فمنها الاستدلال بالضد فان الضدين يدل أحدهما عـــلى الآخر بنسبة التضاد ، و لذلك نسبح بربنا الأعلى فى السجدة ، و نستدل بالفقر على الغنى ، من عرف نفسه فقد عرف ربه . فان تمام تصور الشئ يكون بحدوده ، و الحد هو الفاصل بين الشئ وضده ، و الواسطة بينهما فيوصل إلى ضده .

٢ : و منها الاستدلال بالمشابه .

٣ : و منها الاستدلال بالخاص على العام .

٤ : و منها بالعكس .

٥ : و منها بالخاص على الخاص بواسطة العام .

. . . . (بياض فى الأصل)

بالصلوة و تمسك بها و ألح عليها على رغم المانعين ، و عصاهم فى ذات الله و هم أعزة عليه ، فنزل علـيه القرآن . و كان النزول فى ليلة القدر إذا (النجم هوى) أى فى أول الليل . لأن النزول كان فى ليلة القدر حين تجنح الثريا فى أول الليل قبه على الصلوة من أول الليل . و أما فى آخرها فكان من قبل لادبار النجوم . و هذا بحث طويل ، اشرنا إلى سمته لبيان طريق نظم المعانى .

٢ : و منها ادخال الجملة المعترضة لفوائد كثيرة (١) . . . . . .
(بياض فى الأصل) .

(١) تفصيلها فى كتابه الأساليب رحمه الله تعالى (الجامع)

من افاداته رحمه الله :

لمعرفة النظم فى الكلام عموما و فى كلام الوحى خصوصا أصول .
١ : الكلام الواحد إما جملة واحدة أو عدة جمل ، فيها موضوع واحد .
٢ : الجملة التابعة تكون متصلة : إما بموضوع الجملة السابقة ، أو بجزء خاص من السابقة ، أو بموضوع إجماليها .
٣ : الجملة الثالثة تكون متصلة بالتى قبلها أو بالتى قبل تلك .

٥ ٥ ٥ ٥ ٥

من افاداته رحمه الله :
(١) الكلام حقيقته الترتيب ، فلا ينفصل عنه .
(٢) النظم رباط الأمور المقصد و غاية .
(٣) لابد من الوحدة فى النظم و إلا كان منتشرا .
(٤) النظم الكامل ما كان فيه وضع الأجزاء على ما كان أكثر فائدة ، و أقرب إلى الغاية المقصودة من الشئ .

١٨ — الاستدلال بالآية

أى بأمر مشهود ، ينتقل منه إلى أمر آخر
بوجـه من وجوه المناسبة

استدل ابراهيم عليه السلام على التوحيد بآية سقوط النجوم ، فعرج بها إلى حكمة عظمى . و استدل اسحاق المهندس بآية سقوط التفاحـة على تجاذب الأجـسام . و استدل غوتم بآية الآلام عـلى أن الحياة شر ، فترك الدنيا و سعى للنجاة منها . و ما من شئ إلا و فيه آية على معرفة الرب . قال تعالى : (و ان من شئ الا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً) ، سورة الاسراء آية : ٤٤ ، أى حليم على غفلتكم فلا يعجل بالعذاب و أمهلكم لكى تتوبوا فيغفر لكم .

هذا الاستدلال يكون على وجوه مختلفة :

١ : فمنها الاستدلال بالضد فان الضدين يدل أحدهما عـلى الآخر بنسبة التضاد ، و لذلك نسبح ربنا الأعلى فى السجدة ، و نستدل بالفقر على الغنى ، من عرف نفسه فقد عرف ربه . فان تمام تصور الشئ يكون بحدوده ، و الحد هو الفاصل بين الشئ وضده ، و الواسطة بينهما فيوصل إلى ضده .

٢ : و منها الاستدلال بالمشابه .

٣ : و منها الاستدلال بالخاص على العام .

٤ : و منها بالعكس .

٥ : و منها بالخاص على الخاص بواسطة العام .

. . . . (بياض فى الأصل)

١٩ — المناسبة و الترتيب

اعلم أن القرآن يأتى بجملة من المعانى على نظام مختلف . فيأتى بأمر واحد على أطوار ، حتى أن العبارة تتبدل و المعنى واحد . كما أن أمير الجيش يرتب رجاله على تآليف شتى ، و لا يتبين حسن نظامه إلا لمن مهر فى فنه . وأما من هو دونه ، فبما يعقبه من الاثر من النصر والغلبة .

وظن بعض العلماء كالباقلانى رحمه الله تعالى أن الغرض من تبديل الأسلوب اظهار الاعجاز ، و عندى والله أعلم - ان الاعجاز ليس من أغراض الكلام ، إنما هو من لوازمه . ألا ترى فى كل ما خلق الله تعالى من حبة خردل ، بل من ذرة إلى السماوات العلى كلها معجزة ، و ليس أمر فى خلقتها لغرض الاعجاز بل لحكمة الله فى خلقه . نعم ، عجز غيره عن الاتيان بمثلها دليل على كونها من الله تعالى .

فالغرض من اختلاف الاسلوب ليس إلا زيادة فائدة غير ما كان ؛ لاجل ما ينبغى فى الكلام من الحسن و الصيانة عن التكرار . فان الشئ الواحد إذا تراآى لك مراراً باطوار كثيرة ؛ لابد أن تفهمه تماما . فان فاتتك منه لمحة ستأخذ بك منه أخرى ، كما قال الله تعالى : (أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) سورة الانعام آية : ٦٥ .

من افاداته رحمه الله :

(*) نرى فى القرآن تصاريف شتى للدلائل ، كانه يريك شيأ واحداً من جوانب مختلفة ، لزيادة العلم و زيادة التثبيت . كما قال تعالى : (وكذلك نصرف الآيات . . . . .) و هذا الاختلاف على وجوه .. و هنا إنما نذكر ما يكون من جهة النظم ، فان المعانى تنتظم على انحاء كثيرة وليس هذا موضع تفصيلها .

★

ثم لكل تأليف دلالة خاصة إلى حكمة خاصة ، فاذا وجدت الواحد على أشكال ، دعاك إلى التدبر فى أوضاعها و سألت نفسك الترتيب خلاف فالم و المعنى واحد ؟ فهديت إلى دلالة خاص فلما كان للترتيب دلالة على معنى خاصة ، ههنا البحث عن أنحائه و دلا

أما أنحاء الترتيب ؛ فالأمر الواحد ربما يوتى به كالعمود و ربما كالتبع ، وحيناً يورد مجملا و حيناً مفصلا ، و مرة يقدم و أخرى ي و تارة يفرد و تارة يقترن . فتلك أربع تقسيمات ، تحت كل واحد قسمان . فالجملة ثمانية أبواب و لكن القسمة ثنائية لا ثمانية .

و قبل أن نبحث عنها مفصلا ، نشير إلى أن أول أمر يطلب العمود . و منه يتبين لك قسمه . ثم ما هو المجمل فان المعنى الذى ي المعانى المفصلة يذكر مجملا . ثم إذا تاملت فى ترتيب أجزاء الكلام ، ع وجه وضعها مقدما أو مؤخراً . ثم إذا قايست جملة من المعانى المتحد سور شتى ؛ فرأيت أن أمراً واحداً ذكر فى مقام مفرداً و فى ا مقروناً بقرين له . ثم ربما رأيت أن أمراً واحداً يقرن بأمور ، تارة بهذا و تارة بذاك . فاذا نظرت فى الترتيب من هذه المناظر ، رأيت لامر و وجوهاً حسب وضعه و هديت إلى تأويله الصحيح . فهذه جملة الكلا تفصله و نمثله عن قريب إن شاء الله تعالى بعد ذكر أمر مهم فى الترتيب

★ (١) فربما يكون من جهة الزمان ، فيكون أقرب إلى افهام العامة .
(٢) و ربما يكون على ترتيب الأسباب ، فيكون أدلى بعقول العلماء .
(٣) و ربما يكون من جهة حركة النفس و الفكر و ترتيب تنبهاتها ، فيكون أعلق بأصحاب القلوب .
(٤) و ربما يكون من جهة المدلول عليه ، فيجرى فيه التقديم والتاخير من وجوه كثيرة ، غير الوجوه التى تجرى فى كل واحد مما ذكرنا آنفا . فاما كان جانب المدلول عليه ملحوظاً كانت فى النظم بموجب فيحتاج إلى تامل صحيح .

٢٠ — ترتيب القرآن المعجز

إنى رأيت فى ترتيب كلام الله، و له الحمد على ما أرانى، إن الكلام يجر من أمر إلى أمر وكله جدير بأن يكون مقصداً. فيشفى الصدور و يجلو القلوب، ثم يعود إلى البدء، فيصير كالحلقة. فلا تعلم ما العمود و ماواسطة العقد؟ كما قالت الأعرابية حين سئلت عن أبنائها . . . . .

و ما رام الخطباء إلا أن يصلوا ما قطعوه كما أنشد أبو عبيدة فى الخطيب يطول كلامه و يكون ذكوراً لأول خطبته و للذى بنى عليه أمره، و إن شغب شاغب فقطع عليه كلامه . . . وصل الثانى من كلامه بالأول حتى لا يكون أحد كلاميه أجود من الآخر فأنشد :

فإن أحدثوا شغباً يقطع نظمها فإنك وصال لما قطع الشغب
ولوكنت نساجا سدوت خطبابها بقول كطعم الشهد بالبارد العذب

(كتاب البيان و التبين للجاحظ ص ٨٨)

فبلغ القرآن فى هذا الأسلوب مبلغاً، أعجز بلغائهم و لا ينبئك مثل خبير.

فاذا نظر فى القرآن ذو بصر، تجلت عليه المحاسن من كل مدقة فلا يملك نفسه عنها فيزيل تظامه.

وأما الجاحدون، فمثالهم كما قال الله تعالى : (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم و تركهم فى ظلمات لايبصرون. صم بكم عمى فهم لا يرجعون أو كصيب من السمآء فيه ظلمات و رعد و برق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت و الله محيط

بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضآء لهم مشوا فيه و إذا أظلم عليهم قاموا و لو شآء الله لذهب بسمعهم و أبصارهم إن الله على كل شئ قدير.) سورة البقرة آية : ١٧ - ٢٠.

فالمؤمن متحير فى كمال حسنه و متمتع كما قال :

ز فرق تا بقدم هر کجا که می نگرم کرشمه دامن دل می کشد که جا اینجاست

و الجاحد متخبط بصواعقه و قوارعه و محروم.

فالنظام لا يظهر على هذا و لا على ذاك. و لكن من تأمل بعد ما انتفع و تدبر بعد ما اتعظ، فجاء بقلب سليم و سئول، فيشرب و لا يسكر، و يغوص و لا يغرق . . .

---

* من افاداته رحمه الله :

من عادة العرب و فطرة البلاغة، أن يجر الكلام من أمر إلى أمر و منه إلى أمر آخر، ثم يعود إلى الأول أو إلى الوسط حتى يعود إلى الأول أو إلى ما يتصل به، و إذا كان المخاطب عالماً بأسباب الكلام، لم يشكل عليه نظامه.

* من افاداته رحمه الله :

أعطينا كتابا و فطرة، فهما نسختان لكتاب واحد. و كما نعرف الأولى فكذلك نعرف الثانية، فلابد من المقابلة.

الأول : أنزل على أطهر القلوب. و الثانى : أودع عامة الصدور.

الأول : مسترع و السامع هو الحى. و الثانى : مؤثر و موافق لما يلى عليه.

و ربما يحدث به غير الحى و لا يشعر بها، فقلما ما يحدث به و انطرق الخطأ إليه.

فاذا طهرت الفطرة و خرج نورها، صادفها نور الوحى فتعانقا. (يكاد زيتها يضئ و لو لم تمسسه نار، نور على نور).

و إذ ليس كل قلب يبلغ هذه المرتبة و لكن يقرب منها على تفاوت المراتب. فما كان أقرب كان أقرب مشابهة بالوحى، فاذا قرب منه ظهر نوره و وافقه. كما قال تعالى : (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) فهما كالسراج المتهئ للضوء، نوره مكنون فيبرز بعد ما أيجع الوحى . . .

٢١ — ترتيب القرآن و خفاء معناه

إن القرآن ذو وجوه كجوهرة ذات جوانب ، ترمى بالشعاع من جهات شتى ، و مع ذلك يهدى إلى سبيل واحد . فكلماته كشموس . فن يستطيع أن يجمع أشعته كلها على نقطة ؟ و قصاراك أن تجمع همتك على عمود الكلام و تلمح من فوائده المختلفة إلى ما تقصد . و هكذا ترى الأمر في فطرة الله تعالى ، فإنك لا تحيط بجميع فوائد ما يخلق و خواصه . مثلا أنه إذا أراد إثبات أمر فترى فيه الدلائل الكثيرة من جهات مختلفة ، و كلها يهدى إلى عمود واحد ، فالنظام يشتبك و يلتف ، و يعجز من أراد أن يظهره ، و يخفى على من حرم تدبره أو تعود نظاما غيره فلا يهتدى إليه ، لما هو يتجسس أرضياً و لا يرفع بصره فيرى سماوياً ، فهو يمشي مكباً على وجهه و النجوم تتلألأ على رأسه . مع ذلك يهتدى بفضله لسبيله إلا أن يتعامى من هواه ، فيكون هواه رداءاً على طرقه و سداً بين يديه و من خلفه ، فيحرف الكلم و يعوج القدم . فلا يبالى القرآن من عثر و أين هلك ؟ و الذنب عائد عليه كذلك يضل الله من يشاء و يهدى من يشاء و ما يضل به إلا الفاسقين الناقضين .

و هكذا وصفه الله تعالى : هدى للمتقين ، المؤمنين ، المقيمين الصلوة و المؤتون الزكوة ، المصدقين بكل ما أنزل ، الموقنين بالآخرة . و هكذا فهمه على رضى الله عنه حيث منع الاحتجاج به مع الزائغين لما قال الله تعالى : (و إذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً و جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه و في آذانهم وقراً)

« سورة الاسراء آية : ٤٥ - ٤٦ » فعلم على رضى الله عنه أن فيه اللجاج بطول فيقولون و نقول .

و من كونه ذا وجوه أنه يأتى بلفظ عام و المراد يخص بمحله فتأوله حسب موقعه كقوله تعالى : (فإذا مروا باللغو مروا كراما) فقوله : « كراما » عام و لكن المراد ههنا خاص . أو كقوله تعالى : (الشهر الحرام بالشهر الحرام و الحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم و اتقوا الله و اعلموا أن الله مع المتقين) سورة البقرة آية : ١٩٤ » فقوله : « اتقوا » عام و لكن الذى أريد ههنا أمر خاص ، فمن فهم المحل ، فهم تأويل اللفظ العام و أصاب الوجه ، و من لم يفهم المحل رأى وجوهاً كثيرة . . . . . .

من افاداته رحمه الله تعالى :

إن بيان القرآن و نظمه ، ليس على أسلوب الخط المستقيم دائماً ؛ بل ربما هو متشابك كتصوير الشجرات . و لا يذهب بك هذا إلى القول بأن الآيات مدحرجة فاختلطت . فإنك تجد مثال الاشتباك في [illegible] . فانظر سورة عم يتساءلون ، تجد [illegible] ، و الشجر لعمرى أحسن منظراً من الخطوط و الرسل .

فالقواعد أقل ملالا و بشاعة ؛ إذا جاءت ثم [illegible] ثم انعطفت . و هذا الأسلوب ميز القرآن من كتب الفقه .

و لكن النقل من أمر إلى أمر يكون بمناسبة ؛ فالتمس هذه المناسبة و تفحص على فرائدها ؛ تجد فيها حكماً و كليات تحوى و تشتمل على أنواع تحت جنس واحد ؛ و تجد أعجبة أمر ؛ كما تجد الصلوة و الزكوة معاً و تذكر الربا و الصدقة معاً . و تجد ذكر الصلوة خلالة ؛ كما كان دأب ديماستيس اليوناني ؛ و كما أن الصلوة تأتى بين الأشغال خلالة فتقطعها . . .

٢٢ — ما يهدي إلى الترتيب

(١) إذا وجدنا ذكر عدة أمور معاً في سور مختلفة، و ناول بعضها ببعض، علمنا أن ذلك بالقصد و لنسبة بينها. ثم إن وجدنا سابقها أو لاحقها أو كليهما متحداً علمنا أن ذلك لنسبة بينها، فنفكر ونستنبط المناسبة.

(٢) اللفظ يحتوي معناه الالتزامي كالحكيم مثلا من يعدل بين عباده و لا يخلق شيئاً عبثاً و لا يأمر الضعيف بما لا يطيقه. فإذا قرأت لفظاً و أخذت كلما يحتوي ذلك، يتبين لك الربط و أظن هذا من التدبر الذي ذكره الله تعالى حيث قال: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) سورة محمد آية: ٢٤.

(٣) و من الالتزام لوازم المعاني لما يترتب عليها كالشكر للنعمة، و العبادة للمالك المطلق، و التوحيد في العبادة، و الشكر و التوكل للمنعم المالك القادر المطلق. فكثيراً ما ترى قبح الشرك بعد ذكر نعم الله، وكذلك قبح الشرك بعد قدرة الله الكاملة.

من افاداته رحمه الله تعالى:

النسبة بين الجملتين ربما تكون من جهة التعليل و ربما تقدم العلة و ربما تقدم النتيجة. فإذا علمت هذه النسبة بين أمرين، كان في ذكر أحدهما دليل على الآخر. فإن مثلا في قوله تعالى: (فأما من طغى و آثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى و أما من خاف مقام ربه و نهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى) سورة النازعات آية: ٣٧ - ٤١ إيثار الحياة الدنيا علة الطغيان و مخافة الرب علة النهي عن الهوى، ففي آثر الدنيا دلالة أنه طغى و استغنى عن الرب فإن وجود الأثر دليل على وجود علته.

(٤) إذا وجدت جواباً مفصلا بعد اجمال يسبقه، فقدر فيهما سبق من الاجمال كلما يصلح للجواب المفصل. كما ترى في سورة حم السجدة آية: ٢ (قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه) فهذه، مما، مجملة و لكن في الجواب تفصيل، فاغنى عن تفصيل سابق.

(٥) في القرآن آيات متجانسات مشتركات في مضامينها، و لكن في بعض منها تفصيل أمر و اجمال أمر و في بعضها تفصيل ما أجمل في مثلها واجمال ما فصل في غيرها، فاستقص المماثلات تجد معناها وربطها.

(٦) الصفات مع معناه الالتزامي ربما تشتمل بعضها بعضاً . . . .
. . . . . (بياض في الأصل)

٢٣ — اختلاف الترتيب و حكمته

تنظم الأمور على أنحاء: فربما يقدم أمر و ربما يؤخر، و ربما يربط الفرع بالأصل، و ربما يربط الاول بالآخر، قال تعالى في صفة النبي صلى الله عليه وسلم:

(يتلو عليهم آياته و يزكيهم) فربط الأول بالآخر ثم فصل ذلك فقال: (ويعلمهم الكتاب والحكمة.) سورة الجمعة آية: ٢، وهكذا حيث قال تعالى: (يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة) سورة البقرة آية: ١٥١، و في موضع آخر قال: (يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب و الحكمة و يزكيهم) سورة البقرة آية: ١٢٩، و قد علمنا من العقل و الوحي أن التزكية تمام التربية و كمال السعادة، ففي اختلاف التأليف فائدة خاصة و في كل تأليف دلالة على حكمة خاصة.

قالوا ان السمع أفضل من البصر، لما جاء تقديمه على البصر . و لكن الترتيب ربما يكون صاعداً ، وربما يكون هابطاً ، فلابد من النظر فيه . قال تعالى : (وجعل لكم السمع و الأبصار و الأفئدة) ، سورة السجدة آية : ٨ ، وقال تعالى :(لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل) ، سورة الاعراف آية : ١٧٩ ، وقال تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد و منهم سابق بالخيرات .) سورة فاطر آية : ٣٢ . . . .

من افاداته رحمه الله :

ترتيب المعاني انما يكون بالتقدم و التأخر ، فلابد من المعرفة بوجوه التقدم و التأخر ، فنذكر منها بعض أصوله :

(الف) : المدح و الذم ، و الأمر و النهي من باب واحد .

(ب) : في نسق المدح و الأمر ربما يكون الترتيب صاعداً . فان الأمر بالأسهل أهون ، و يمهد لما هو أصعب . و ربما يكون هابطاً ، لان الاشنع يحذر عنه ، لان ضرره أكثر و الفرار عنه أقدم و أهم . مثلا : (غير المغضوب عليهم والضالين) .

و اذا كان صاعداً ، فربما أن الدقيق يتبع الجليل فيقدم الاخف مرورا و ربما يقدم ليعلموا انه يترقى الى ما هو اشد و اقبح .

(ج) : . . . .

○ ○ ○○ ○ ○

٢٤ — وجوه لأمر واحد

ان الله تعالى علمنا في كتابه وجوهاً لأمر واحد . مثلا ذكر الصلوة و الزكوة و الذكر و الشكر و أمثالها و القصص الواحد على جهات . تستدل بها على حكم جمة و تزداد به علما لأمر واحد .

و هكذا لما جعل الله تعالى أمراً واحداً آية على أمور عديدة ، ذكر ذلك الأمر ليتضح لنا جهات التفكر في آية واحدة . مثلا جعل المطر آية على معارف ، فذكره لجهات مختلفة . و دل على هذا الأصل حيث قال : (و لا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها و ادعوه خوفا و طمعاً ان رحمة الله قريب من المحسنين (أي من الذين لا يفسدون و يعملون الصالحات و يدعون ربهم خوفا و طمعاً) و هو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فانزلنا به الماء فاخرجنا من كل الثمرات (كذلك نخرج الموتى) لعلكم تذكرون . (أي هذا هو ربكم فتشكرون على رحمته و ترجون و تخافون) و البلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون) ، سورة الاعراف آية : ٥٦ - ٥٨ ، (أي الذين قد انتفعوا عما أراهم الله من آياته و آمنوا بالرب تعالى) .

فجعل الله المطر جامعاً لحكم جمة : فهو آية على رحمته على العباد . و فيه الطمع و الخوف كما قال في سورة الرعد .

و جعله آية على البعث بعد الموت كما جاء في القرآن التصريح به و ههنا أيضاً .

ثم جعل المطر آية على انتفاع الشاكرين و الذاكرين بآيات الله .
ثم دل على أن الله يصرف الآيات على وجوه مختلفة . لتنظر إليها
من جهات مختلفة . فتكون شاكراً على هذا تصريف الآيات منه تعالى كما
كنت شاكراً على ما ذكر من نعمه الظاهرة . . . .

٢٥ — تركيب المطالب بعضها ببعض

النظر فى آيات السور ، لا يدع شكا فى أن عمود الكلام ليس إلا
الامور الكلية التى لاتتعلق بوقت و زمان . وأما الأحكام الخاصة، فجاءت
عن عرض و وضعت تحت الكليات إلا قليلا . و مع ذلك لم يقتصر عليها
حتى خولطت بالكليات و الحكم كما ترى فى سورة النور ، بدأت بالأحكام
ولكن العظات و الوصايا العالية ضمت بها . فلابد للمفسر أن ينظر فى
القرآن من جهة الحكم و يربط الأحكام باصولها . و أما الوقائع الخاصة
فجعلت مواقع للتنزيل لتكون تقريباً إلى الاستماع و التوجه . . . .

٢٦ — قران الامور و تقابلها

كلما جاء فى القرآن أو الحديث من قران الأمور و تقابلها : يهدينا (1)
إلى تدبير الاخلاق و مداواة القلوب . فان الضد ينفى الضد و الموافق
يساعد الموافق. فمن ذلك ذكر الصدقة و الربو معاً . و ذكر التثبت والصدقة .
(2) و كذلك يهدينا إلى حقائقها ، فان الاشياء تتبين باضدادها .
(3) و كذلك يهدينا إلى بقاء قرين أو فنائه ، ببقاء قرينه أو فنائه. فمن
ذكر الصلوة و الزكوة معاً و تقديم الصلوة مرة و الزكوة أخرى ، علمنا
اللزوم بينهما . فلابقاء لاحداهما مع فناء الاخرى .
(4) و كذلك يهدينا إلى مماثلتهما فى الآثار . كما استدل أبوبكر رضى الله
عنه على أثر ترك الزكوة بأثر ترك الصلوة . فحكم بكفر الذين لم يعطوها .
و قد صرح بذلك القرآن والحديث حيث أمرهم بقتال الكفار حتى يصلوا
و يوتوا الزكوة .

و أعلم أن القرآن ربما يصرح بهذه الامور و ربما يكتفى بالاشارة .
مثلا فى مغايرة الآثار قال تعالى : (الذين يأكلون الربو لا يقومون إلا
كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) « سورة البقرة آية : ٢٧٥ »
فأشار إلى كون الربو ضداً للصدقة ، لما ذكر أثره ضداً لأثر الصدقة ، فانها
تثبيت النفس كما صرح به القرآن : (و مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء
مرضاة الله تثبيتاً من أنفسهم الآية) « سورة البقرة آية : ٢٦٥ » وكذلك
أشار إلى كونه ضداً للصدقة ، لما ذكر أن الربو أذان بحرب من الله
ورسوله ؛ و الصدقة مرضاته . ثم صرح بكونهما ضدين متقابلين حيث قال :
(يمحق الله الربو و يربى الصدقات) « سورة البقرة آية : ٢٧٦ »

ثم جعل المطر آية على انتفاع الشاكرين و الذاكرين بآيات الله .
ثم دل على أن الله يصرف الآيات على وجوه مختلفة . لتنظر إليها
من جهات مختلفة . فتكون شاكراً على هذا تصريف الآيات منه تعالى كما
كنت شاكراً على ما ذكر من نعمه الظاهرة . . . .
. . . . . .

٢٥ — تركيب المطالب بعضها ببعض

النظر في آيات السور ، لا يدع شكا في أن عمود الكلام ليس إلا
الامور الكلية التي لاتتعلق بوقت و زمان . وأما الأحكام الخاصة، فجاءت
عن عرض و وضعت تحت الكليات إلا قليلا . و مع ذلك لم يقتصر عليها
حتى خولطت بالكليات و الحكم كما ترى في سورة النور ، بدأت بالأحكام
ولكن العظات و الوصايا العالية ضمت بها . فلابد للمفسر أن ينظر في
القرآن من جهة الحكم و يربط الأحكام بأصولها . و أما الوقائع الخاصة
فجعلت مواقع التنزيل لتكون تقريباً إلى الاستماع و التوجه . . . .
. . . . . .

٢٦ — قران الامور و تقابلها

كلما جاء في القرآن او الحديث من قران الأمور و تقابلها : يهدينا
إلى تدبير الاخلاق و مداواة القلوب . فان الضد ينفي الضد و الموافق
يساعد الموافق. ففي ذلك ذكر الصدقة و الربو معاً . و ذكر التثبت والصدقة .
و كذلك يهدينا إلى حقائقها ، فان الاشياء تتبين باضدادها .
و كذلك يهدينا إلى بقاء قرين أو فنائه ، ببقاء قرينه أو فنائه . فمن
ذكر الصلوة و الزكوة معاً و تقديم الصلوة مرة و الزكوة أخرى ، علمنا
اللزوم بينهما . فلابقاء لاحداهما مع فناء الاخرى .
و كذلك يهدينا إلى تماثلهما في الآثار . كما استدل أبوبكر رضي الله
عنه على أثر ترك الزكوة بأثر ترك الصلوة . فحكم بكفر الذين لم يعطوها .
و قد صرح بذلك القرآن والحديث حيث أمرهم بقتال الكفار حتى يصلوا
و يوتوا الزكوة .

و أعلم أن القرآن ربما يصرح بهذه الامور و ربما يكتفي بالاشارة .
مثلا في مغايرة الآثار قال تعالى : (الذين يأكلون الربو لا يقومون إلا
كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) « سورة البقرة آية : ٢٧٥ »
فاشار إلى كون الربو ضداً للصدقة ، لما ذكر أثره ضداً لأثر الصدقة ، فانها
تثبيت النفس كما صرح به القرآن : (و مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء
مرضاة الله تثبيتاً من أنفسهم الآية) « سورة البقرة آية : ٢٦٥ » وكذلك
أشار إلى كونه ضداً للصدقة ، لما ذكر أن الربو أذان بحرب من الله
ورسوله ; و الصدقة مرضاته . ثم صرح بكونهما ضدين متقابلين حيث قال :
(يمحق الله الربو و يربي الصدقات) « سورة البقرة آية : ٢٧٦ »

و من توافق القرينين نفهم كونهما عاثلا ، مثلا مرة : قرن الصلوة و المواساة و أخرى : قرن الايمان و المواساة ، فهمنا كون الصلوة و الايمان من باب واحد و ذلك فى قوله تعالى : (قالوا لم نك من المصلين و لم نك نطعم المسكين) • سورة المدثر آية : ٤٢ – ٤٣ • و قوله تعالى : (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم و لا يحض على طعام المسكين) • سورة الحاقة آية : ٣٣–٣٤ • وقوله تعالى : (أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم و لا يحض على طعام المسكين إلى آخر السورة) . سورة الماعون . فعلمنا أن الايمان بالله و المعاد و الصلوة و المواساة كلها من باب واحد . و كذلك قرن الايمان بالعمل الصالح و ربما قرن العمل الصالح بالتقوى . مثلا (فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون) • سورة الاعراف آية : ٣٥ • فعلمنا أن التقوى و الايمان متفقان . . . .

من افاداته رحمه الله تعالى :

التقابل ربما يكون من جهة التعلق ، كما قال تعالى : (و تواصوا بالصبر و تواصوا بالمرحمة) • سورة البلد آية : ١٧ • فالصبر مع الأقوى و المساوى ، و المرحمة مع الأضعف .
و كذلك (و تواصوا بالحق و تواصوا بالصبر) • سورة و العصر آية : ٣ • فالحق يتعلق بالعلم ، و الصبر يتعلق بالعمل ، و من جهة أخرى : الحق ما هو عليك ، تتوب لاقامة العدل . و الصبر فى ما هو لك ، تتصبر ، و من جهة أخرى كما ذكرنا فى تفسير سورة و العصر .

٭ ٭ ٭ ٭ ٭ ٭

ان القرين فى الكلام قرين فى المعنى ، و قد نبه الله تعالى كثيراً على هذا الامر . فذكر الامرين المتقابلين معاً ؛ مثل ذكر شهادة الزور مع الشرك ، و ذكر الزنا مع الشرك ، و ذكر الصلوة مع الصبر ، و ذكر المرحمة مع الصبر وغيره .

٢٧ — الحذف

(١) اعلم ان كلام العرب كله نمط أعلى من كلام الامم الذى تعودت به ، لانهم مولعون برزانة القول و تهذيبه من أمور خفيفة . فهم يجردون كلامهم من كل رابطة و لو فعلوا ذلك كان عاراً على السامع . فانه يفهم الروابط بذكائه ، فلذلك كثر فيهم الحذف . ألا ترى قولهم : « انا ذاهب » كلمتان و فى أكثر اللغات ثلاث كلمات . نخف عليهم بهذا الايجاز اعمال المنطق . كأن كلامهم قد وضع حسب اقتضاء الفكر و الفهم . فترى كلامهم مربوطاً برابطة عقلية . و عليك أن تميز بين الروابط من كل قسم ، فانهم لا يصرحون بها ، هذا .

ثم إذا كان الكلام على غاية القوة ، نكب عن كل غير مهم و ألقى المعانى على النفوس مجردة كما ترى فى أشعارهم البليغــة . فعند ذلك يأخذ من الأساليب أخفها ، و يدل بعضها ببعض . و هذا كثير فى حجج القرآن ، لأن الحجة أحوج إلى الكناية . فان تصريحها ينفر المنكر فتأخذه العزة و الحمية الجاهلية . مثلا فى قوله تعالى : (و قال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل بلى و ربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عــنه مثقال ذرة فى السمٰوات و لا فى الأرض و لا أصغر من ذلك و لا أكبر إلا فى كتاب مبين ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة و رزق كريم والذين سعوا فى آياتنا معجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم) • سورة سبا آية : ٣ – ٥ • فاستدل بعلمه بكل غيب يحتوى صغائر أعمالنا على لزوم الجزاء و لكن ربط هذا الاستدلال باسلوب الصفة و أخرج الكلام مخرج

القسم لشدته ، و بسط القول فى فوائد الكناية و الايجاز و القسم فى غير هذا المقام .

(٢) وعما يكون موضع الحذف محتملا لتقديرات مختلفة فكثيرا ما يغالطون، إما لزيغ فى رأيهم أو لفرارهم عن الحذف . فلا يقدرون شيئا أصلا ، كما ترى فى قوله تعالى: (قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا يتلو عليكم آيات الله) فههنا رجحوا من الاحتمالات ما لم يحتاجوا فيه إلى تقدير .

قال البيضاوى رحمة الله عليه فى تفسير هذه الآية : « يعنى بالذكر جبريل لكثرة ذكره أو لنزوله بالذكر و هو القرآن . أو لأنه مذكور فى السماوات أو ذا ذكر أى شرف .

أو محمداً عليه الصلوة و السلام لمواظبته على تلاوة القرآن أو تبليغه .

و عبر عن ارساله بالانزال ترشيحاً أو لأنه مسبب عن انزال الوحى إليه و ابدل عنه رسولا للبيان .

أو أراد به القرآن و رسولا منصوب بمقدر مثل ارسل أو ذكر . أو الرسول مفعوله أو بدله على أنه بمعنى الرسالة » . (انتهى كلامه)

و ذلك لمحض أنهم ظنوا أن الحذف ضعف فى الكلام ، و لم يعلموا أن الأمر خلاف ذلك . فقد بنى كلام العرب على الايجاز و كثر فيه الحذف فلا معنى للتحاشى عنه . وأما ما جمع من الاقوال فى هذا المقام . ففيه مثال واضح للطريق الذى يسد عن معرفة المراد و يرمى الناظر فيه أنه صار متضلعاً من تاويل الآية مع شدة جهله بها ، فانه بعلمه هذا لم يزدد إلا حيرة و عمى . . . .

٢٨ — تقدير المحذوف

فى السياق والسباق دلالة على ما حذف ، مثلا قال تعالى: (واتل عليهم نبا ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخرقال لاقتلنك ، قال إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما انا بباسط يدى إليك لاقتلك إنى أخاف الله رب العالمين) ، سورة المائدة آية : ٢٦ — ٢٧ ، لما قال قابيل لاقتلنك فهم هابيل من قوله انه يريد قتله لغضبه الناشى عن الحسد على أن تُقبل قربان أخيه و لم يتقبل قربانه ، فاجابه بان الله لا يتقبل الا من المتقين . ثم أتى بالحجة الظاهرة على أنه من المتقين الذين يخافون الله و ان أخاه قابيل ليس ممن يخافونه . فدل السياق على علة القتل ودل وضع الآيتين على الاحتجاج و كل ذلك من دلالات النظم .

الحذف فى كلامهم يشبه كلامهم بالوثبات ، و القرآن كقطر السحاب من وجوه مختلفة ، و هذه الوثبة من بعض وجوه المطر . قال امرء القيس فى صفة السحاب و مطره :

لها وثبات كوثب الظباء فواد خطاء و واد مطر

من افاداته رحمه الله تعالى :

من عادة المصنفين الحاذق فى ترصيع المطالب و ترتيبها ، لكى يفهمها العامة . ثم بعد ذلك تأتى جماعة الشارحين و الناقدين . فالمشتغلون بهذا الطريق تعودوا فى سيرهم بالدبيب ، وضيعوا قوة الوثوب .

و أما فطرة الأذكياء ، فترك المقدمات المتوسطة اعتماداً على فهم السامع ، فالذين غلبت عليهم الحضارة وكثرة الاشتغال بالكتب ، إذا عثروا على كلام ذى وثبات عجزوا عن دركه ؛ و إن تفكروا فى ما ترك ؛ ذهبوا إلى غير وجه الصواب لأسباب ؛ أكثرها أنهم لا يتفكرون لاستخراج المقدر إلا إذا بدا لهم حاجة ، و هذه الحاجة هى الضارة فانهم إذ ذاك مضطرون تكلفا .

فالكلام الذى لا حذف فيه لا محل فيه للعقل و النظر و هو كتذييب الفل . و العرب لا تستجيده و لا تتأثر به لذكائهم و سرعة فهمهم وتنفرهم عن الفضول، وإن كان ضروريا عند غيرهم وهذا مبسوط فى بحث الحذف.

و مثال التأويل بالسياق و السباق . تأويل النبى صلى الله عليه وسلم الدعاء إلى العبادة كما جاء فى صحيح البخارى قال : « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ الآية : (ادعونى استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى) سورة غافر آية : ٦٠ . . . .

٢٩ — وجوه الربط

الوجه الذى يربط المتصل القريب و يقضب البعيد المحيط . لايؤخذ به إذا أمكن الربط الوسيع الذى لا اقتضاب فيه .

و كذلك الوجه الذى له شاهد فى العبارة ، يرجح على الوجه الذى هو فرض محض .

وكذلك الوجه الذى يوافقه المحكم من الكتاب والسنة يرجح .

مثلا قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون . إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) «سورة لمائدة آية : ٣٥ - ٣٦» قال العلامة الشاه عبد القادر الدهلوى رحمه الله تعالى : «يعنى المراد من الوسيلة ، طاعـــة النبى وإن العمل الصالح الذى يحكم به محض العقل لا يقبل» . و هذا كلام صحيح فى نفسه ولكنه ليس ههنا محله فى ترجمة «الوسيلة» و لا حاجة إلى دفع دخل زعمه مقدراً

فان العمل الصالح لابد أن يكون فيه طاعة النبى ، فانه إنما جاء للدعوة إليه و البيان له .

فالتفسير الموافق بالقبل و البعد أن العبد لابد أن يحقق تقواه بالاعمال المقربة إلى الله تعالى و هو حقيقة القربان قال تعالى : (لن ينال الله لحومها و لا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) «سورة الحج آية : ٣٧» و الآيات السابقة فى ذكر القربان و التقوى فى قصة هابيل و قابيل . وقبل ذلك بيان بذل النفوس فى سبيل الله و نيل الفلاح به ، كما ذكر فى قصة موسى عليه السلام و قومه حين أبوا أن يقاتلوا فى سبيل الله . و الربط بين بذل النفس و المال بالجهاد و النحر ظاهر و قد جاء فى القرآن كثيراً. فعلى هذا البناء قال ههنا : (وجاهدوا فى سبيله) أى حققوا تقواكم بالجهاد فتفلحوا . ثم لما كان القربان سواء كان قربان النفس أو المال فدية ، و قد قرب هذا المعنى من قلوب العرب من وجوه مختلفة ، قال قائلهم :

تهين النفوس و هون النفو س عند الكريهة أبقى لهـــا

و هذا هو معنى الفلاح و هو البقاء و هو معنى الفدية و القربان و البركة به . فقال : (لعلكم تفلحون) ثم بين أن الفدية لا يتقبل يوم القيامة و لو كان بجميع ما فى الدنيا ، فلزمكم أن تفتدوا بالاعمال فى الدنيا ، فترى أن هذا التفسير مبنى على الربط الوسيع و فى العبارة شهادات علـــيه و شواهد محكمة من القرآن و اللسان تؤيده . و الله أعلم .

و المثال الثانى قوله تعالى فى سورة الانعام : (و هذا صراط ربك مستقيما . قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) « آية : ١٢٦ » قال العلامة عبد القادر الدهلوى رحمه الله تعالى : المراد من الصراط المستقيم

و الاذعان للطاعة ونبذ العقل و هذا تاويل غير صحيح .

قد كثر فى القرآن بيان الصراط المستقيم بالتوحيد ، و قد جاء هذا كلام فى اخلاص الاسلام لله ، و من هذه الجهة الاذعان لآياته . فقال الى قبل ذلك : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام و من د أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا كأنما يصعد فى السمآء كذلك يجعل له الرجس على الذين لا يومنون) أى أن الله تعالى ييسر المومنين للطاعة شرح له صدورهم ، فيتفهمون بآياته و يذكرونها ، و اما الذين لا يومنون نع عليهم رجس الشياطين ، فتصرف قلوبهم عن الحق و تضلهم الظنون اسدة ، فتضيق صدورهم عن قبول الحق . فليس أن العقل معطل عند ومنين بل يجرى عقولهم على السداد و قوله تعالى : (قد فصلنا الآيات م يذكرون) يويد ما قلنا ويويده محكم القرآن .

المثال الثالث : (ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب يشآء و يغفر لمن يشآء و الله على كل شئ قدير) « سورة المائدة آية : ٤ » ل العلامة عبد القادر الدهلوى رحمه الله تعالى : ان الله تعالى يعذب عذاباً ظيما على اثم صغير ان شاء فلا اعتراض عليه و هذا تاويل باطل . فان اد من الآية أن الله تعالى يعذب الظالمين ويتوب على التائبين فهو المالك الاطلاق . فكما يعذب بقدرته ، فكذلك يغفر بقدرته ، و هذا تاويل فق بنظم الكلام ، فان الله تعالى ذكر قبل هذه الآية عذاب السارق لمغفرة له ، إن تاب بعد ظلمه ، فنبه على أنه لا مانع له من المغفرة و بة على من تاب و أصلح و هذا هو اطلاق المشيئة ، و لا شك فى أنه اعتراض عليه فى ما يفعل ، ولكنه لا يفعل غير الحق و القسط ، و ما كان النزاع فى هذه المسئلة ؟ فانها لا موقع لها ههنا .

(٣٠)

طريق استنباط علم النظام و أصوله

أجمع أهل التاويل من السلف إلى الخلف على أن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، و انه أوثق تعويلا و أحسن تاويلا .

فنقول كما أن القرآن يفسر مطالب آياتها بعضها ببعض ، فكذلك يدلك على نظام مطالبها و مناسبتها ، بما يأتيك بنظائره ، فتكثر الشواهد على رباط أمر مع أمر . و بذلك يحثك على التامل فى جامع وصلة بينها ، ثم يأتى عليه بامثلة كثيرة ، بعضها أوضح من بعض ، حتى تدرج بك على ما كان أدق و أغمض .

و هذا يستدعى تفصيلا و تمثيلا و سيأتيك جملة من هذا فى مواضعه ، وإنما قدمت هذا الأصل الكلى من أصول التاويل و هو أكبر ما نعتمد عليه ، و الله تعالى هو الموفق .

٣١ — فن النظم عموما

اعلم ان الجملة كما أن لها أجزاء تركيبية من جهة النحو، كالمبتدإ و الخبر و الفعل و الفاعل، و أقسام المفاعيل و الحال و التميز و التوابع وغيرها. وكذلك للكلام — وهو مجموع الجمل — أجزاء تركيبية، فالأجزاء الاجمالية منها: ١ — العمود، ٢ — و التمهيد، ٣ — و المنهج، ٤ — و الخاتمة.

و أما الأجزاء التفصيلية، فمنها:

١ : التعليل: إما لاثبات أو لدفع شبهة. (الدليل ربما ينبه عليه لتعليم التفكر، و ربما يذكر عرضاً لكيلا يتنفروا)

٢ : التفريع بيان الفروع: ومنه الانتاج ويدخل فيه الشرائع كثيراً.

٣ : التأصيل بيان الاصول: و به ينبه على سر الشرائع و الاستدلال البرهاني.

٤ : التفصيل لمجمل: و هذا باب وسيع يفرق في مواضع، لتوجيه النظر و قلة المؤنة و تعليم التدبر و الحكمة.

٥ : التمثيل: إما للتوضيح أو للدليل. ومنه القصص وضرب الامثال و ذكر الوقائع. و بهذا يتوسل إلى تعليم الحكمة و الاستنباط.

٦ : ايراد المتشابه: | من البيان. و في هذا يضم قرين بقرينه.

٧ : ايراد المقابل و الضد: | ليدل على مقامهما. كالشرك مع الزنا و التوحيد مع الاحسان بالوالدين وصلة الرحم.

٨ : التنبيه بالوعد و الوعيد و التحسين و التقبيح: و هو خطاب إلى القلب كما أن الاستدلال خطاب إلى العقل.

أما العمود: فهو جماع مطالب الخطاب. فاليه مجرى الكلام و هو المحصول و المقصود منه. فليس من أجزائه الترتيبية و لكنه يسرى فيه كالروح و السر، و الكلام شرحه و تفصيله، و انتاجه و تعليله. وربما يحسن اخفاؤه. فلا يطلع عليه إلا بعد استيفاء الكلام و التدبر فيه (١).

و أما التمهيد: فاكثر ما يحتاج إلى تقديمه في الكلام إذا خوطب به من لعله يصعب عليه. فيقدم بيان تمهد لالقاء ما هو المقصود. و هذا هو الاصل فيه. و لكنه يأتي على أنحاء لا تحصى، ومقادير متفاوتة، ومحاسن غير محصورة. و ملاك أمره ذكر كل ماله تاثير في قلب السامع و عقله حتى يصغى و يستمع. و لا تستحسن اطالته، حتى يصير أكثر أو قريباً من المقصود. و لكن المتكلم الماهر ربما يصرف في الكلام ما لم ينتظروه. ويدخل على السامعين من باب جديد. فربما يطيل التمهيد فاما يأتي بالمقصود باوجز عبارة أو لا يذكره أصلا. ولكن التمهيد قد كفاهم. و ربما يتدرج منه إلى المقصود فلا تكاد تفصل بينهما. و هذه أنحاء الكلام في الابتداآت لا تكاد تحصى. و ربما يترك التمهيد و ذلك حين يخاطب المطيع المنقاد الفاهم أو يلقى الأمر بالقهر و الغضب. فيهجم على المخاطب كالصاعقة. كما ترى في سورة النور و البراءة و في كل ما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم. و هذا الذي ذكرنا يتعلق بالتمهيد من جهة الترك. لتعلم مقتضى الحكمة في الاتيان به و الامتناع عنه.



(١) العمود كالحد المطلق. لا يطلع عليه بالسمة إلا بعد رجع النظر في الكلام و علم روابط الجملات و احاطة المطالب حلة. ثم إن وجدت العمود المفروض. أوفق بالنظم و أقرب إلى زيادة الترضيح وحسن النظم. فقد اصبت. والا فلابد من طلب عمود آخر. (ت رحمه الله تعالى)

و أما المتبع : فهو مساق الكلام . و هو إما خطاب إلى النبي أو إلى المؤمنين أو إلى المنكرين أو جامع . فالى النبي إما بما يخصه من التسلية و الصبر و الصدع بالحق . . . . (بياض في الأصل)

٣٢ — الفرق بين المناسبة و النظام

قد صنف بعض العلماء في تناسب الآي و السور ، و أما الكلام في نظام القرآن ، فلم أطلع عليه . و الفرق بينهما ، أن التناسب إنما هو جزء من النظام . فان التناسب بين الآيات بعضها مع بعض ، لا يكشف عن كون الكلام شيئاً واحداً مستقلا بنفسه ، و طالب التناسب ربما يقنع بمناسبة ما . فربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام فيصير شيئاً واحداً . و ربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالها فان الآية التالية ، ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها . و لولا ذلك لما عجز الأذكياء عن إدراك التناسب ، فانكروا به . فان عدم الاتصال بين آيات متجاورة يوجد كثيراً ، و منها ما ترى فيه اقتضابا بينا ، و ذلك إذا كانت الآية أو جملة من الآيات ، متصلة بالتي على بعد منها .

من افاداته رحمه الله :

إذا وجدت ما يظهر به الاقتضاب فربما هو أخذ أمر يشمله و ما سبقه أمر عام كلي ، وربما هو كر على ما مر ، و دخل بينهما مثال أو تفصيل أو معترضة كانت جديراً بالذكر في ذلك المقام .

و ربما هو جملة معترضة مناسبتها تظهر إذا استخرجت القصد الاعلى ما سبقها .

الاقتضاب الظاهر : أجمع المعاني مثلا قوله تعالى : (و لا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم) فالجملة الأخيرة جامعة لوجوه من الروابط . الأول انها دعاء متفرع على حسن الثقة بالمؤمنين ، و الثاني أن الداعي تمسك في دعائه هذا ، برأفة الرب تعالى و دعا لنفسه أن يعطيه رأفة بالمؤمنين ، و الثالث أن رأفة الرب تعالى تقتضي رجاء رأفة بالمؤمنين ، فتمسك بذلك و دعا أن يعطيه النصح بالمؤمنين .

و بالجملة فرادنا بالنظام أن تكون السورة كاملا واحداً ، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة و اللاحقة ، أو بالتي قبلها أو بعدها على بعدها ، كما قدمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض ، فكما أن الآيات ربما تكون معترضة ، فكذلك ربما تكون السور معترضة . و على هذا الأصل ترى القرآن كله كلاما واحداً ، ذا مناسبة و ترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر .

فتبين بما قدمنا أن النظام شئ زائد على المناسبة و ترتيب الأجزاء ، و الآن نبين ما لا يتم النظام إلا به .

٣٣ — تصوير المعاني و سبكها في صورة

اعلم ان مرادنا من النظام ان تكون لكل سورة ، صورة مشخصة . فان معاني الكلام إذا ارتبط بعضها ببعض و جرت إلى عمود واحد ، و كان الكلام ذا وحدانية . فحينئذ لا يكون إلا و له صورة مشخصة . فاذا نظرت إلى الكلام من هذه الجهة ، رأيت ما فيه من الجمال و الاتقان و الوضاحة . . . .

من افاداته رحمه الله تعالى :

المفسرون يعبرون بالتناسب ، جعلوا التناسب عمادا لشرفها و لكن لم يجعلوه جزءا عظيما من مفهوم القرآن ، ولذلك بقي متروكا لاشكاله . وأما نحن فنقول ان فهم القرآن معول اليه . والاختلافات الكثيرة في التأويل و عدم الاعتماد على تأويل صحيح ، انما نشأ من عدم المعرفة بالنظام ، فانه هو المعتمد في صحيح التأويل و رفع الشكوك والحيرة .

٣٤ — الوحدانية

(١) لا يخفى مما قدمنا ان الكلام الصحيح النظام لا بد له من عمود يجرى اليه الكلام ، فلا بد لطالب النظام ان يتأمل فى مساق الكلام . فانك ترى فى السورة الواحدة مطالب شتى ، ولا تعلم ماهو العمود الذى سيق اليه المعانى ؟ ولن تهتدى الى معرفة اتصال الكلام بعضها ببعض ، دون معرفتك بمساق الكلام ، و وجهته التى تسلك اليها اجزاؤه ، حتى تراها منظومة فى سلك واحد .

وبالجملة فالنظام هو الذى يعطى السورة وحدانيتها التى بها صارت سورة كاملة مستقلة بنفسها ، ذات عمود تجرى اليه اجزاؤها .

(٢) الكلام يتفاوت من جهة الوحدانية ، والمناسبة ، والترتيب ، فيمكن ان يكون ذا وحدانية ولكن خاليا عن التناسب والترتيب .

مثلا اذا الفت كتابا فى النصائح وقد جمعت فيه اقوالا كثيرة مما يتعلق بالدين و الاخلاق والمعاشرة و السياسة ، فان وضعت كل ذلك من غير ترتيب ، لم يكن خاليا عن وحدانية ولوضعيفة ، لما ان كله فى النصائح ، فله نوع من الوحدانية والشخصية المميزة ، و لكنه عديم المناسبة والترتيب .

من افاداته رحمه الله :

فى السورة الواحدة نظام واحد ، وهو امر جامع خاص .

قال لا اريد جامعا عاما ، كالهداية والوعد والوعيد ، فان الكلام ربما يكون غير منتظم ويكون كله فى الوعظ . . . .

من افاداته رحمه الله :

التحدى لم يقع بأقل من سورة . وذلك دليل على ان السورة لها نظم خاص ، يجعل السورة كلاما ذا وحدانية ، وتمام الحسن والبلاغة انما هو بتلك الوحدانية ، كما ترى ذالك فى كل شئ ركب بعضه ببعض حتى صار شيئا واحدا .

فاما اذا قسّمته فى ابواب : مثلا باب فى الدين ، وباب فى الاخلاق وهلم جرا ، ووضعت كل قسم من الاقوال فى بابه ، صار الكتاب متناسب الاجزاء مع بقائه على ضعف الوحدانية .

فاما اذا نظمت نصائح كل قسم فى قصة جامعة كما ترى فى كتاب كليلة ودمنة ، صار كل باب شديد الوحدانية مع بقاء الكتاب على ضعف الوحدانية .

فاما اذا راعيت حسن الترتيب والمناسبة فى تقديم الابواب بعضها على بعض ، ومع ذالك جعلت الكلام فى كل باب بيانا واحدا ، جاريا الى موضوعه مع تناسب فى اجزاء الكلام ، صار الكتاب ذا نظام كامل .

و بالجملة فلابد لحسن النظام من ان يكون الكلام : حسن الترتيب ، حسن التناسب ، قوى الوحدانية . . . .

٣٥ — استخراج العمود صعب جدا

اعلم ان تعيين عمود السورة ، هو اقليد لمعرفة نظامها ولكنه اصعب المعارف ، و يحتاج الى شدة التامل و التمحيص و ترداد النظر فى مطالب السورة المتماثلة و المتجاورة ، حتى يلوح العمود كفلق الصبح ، فيضئ به السورة كلها ، ويتبين نظامها ، و تاخذ كل آية محلها الخاص ، و يتعين من التاويلات المحتملة ارجحها ، وانما صعب ذلك لوجوه ، نذكر بعضها هنا .

الأول : أن القرآن إنما نزل متشابها مثاني . فترى سوراً متشابهة المطالب مع اختلاف عمدها ، و متحدة العمد مع اختلاف المطالب ، فن لم يقف باحالة النظر فى مطالبها مرة بعد مرة ، وجدها تحت عمد مختلفة .

فان الشئ الواحد يدخل تحت كليات مختلفة ، حتى يتبين له من بينها ما هو الارجح ، كان كسالك سبيل بلغ مجتمع الطرق ، فضل . فكلما ذهب ، بَعُد عن مستقيمها .

و الثانى : أن الله تعالى كما أنزل هذا الكتاب ، لواجبات العقائد و الشرائع ، فكذلك أنزله لتعليم الحكمة . و جعل ذلك من أخص صفات نبينا صلى الله عليه وسلم ، و بذلك جعله خير المعلمين . و أعطاه من الآيات ما تكون أكثر اتباعا و أكمل تعليما .

و لا يخفى أن تعليم الحكمة لا يتأتى بالقاء المعارف ، و إنما يتأتى باستعمال الفكر و العقل ، و حثه و تنبيهه على النظر حتى يبرز قواه الكامنة كما هو الأصل فى كل تربية . فعلى هذا كما جعل القرآن جانباً منه ظاهراً بيناً ، فكذلك جعل جانباً منه باطناً مكنوناً ولكى يهتدوا إلى بطونه ، جعل الباطن على مدارج ، لكى يترقى المجتهد فى درجاته من الاقرب إلى الابعد . فان التربية لا تتم بدون ذلك .

والكلام إذا كان منظما من جهته الظاهرة ، لم يحتج الناظر فيه إلى تامل ، ولكن إذا كان اتصاله تارة ظاهراً و تارة خفياً ، توقف الناظر و تامل فيه . فانه كيف يرضى بالخلل الفاحش فى كلام الحكيم العليم، ولذلك آمن من آمن بالنظام .

ثم جعل الله تعالى ما أخفى من النظام على مراتب ، فجعل أكثره على غاية البطون . و إذ جعل النظام من أكبر ما يحث به على النظر و التامل ، أخفى العمود . فلو صرح بالعمود لم يبق كبير مشقة فى فهم النظام . فصار غير محتاج إلى النظر و ابطل الحكمة . و إذ خبأه الله تمحّن به

العقول ، لابد أن يكون صعب المطلع ، فكانه وضعه مناط الثريا .

و الثالث : أن الله تعالى لمثل المصلحة التى ذكرنا آنفاً ، جعل القرآن على نهاية الايجاز ، ومع ذلك ملأه حكما جمة . فلكثرة المطالب العالية والاطائب الغالية يتحير الناظر فيه و يصعب عليه أن يصطفى من بين معانيه معنى واحداً كالعمود . كمن يطلب من بين الجواهر واسطة للعقد ، و من غاية الحسن كلها بروقه ، فلا يدرى أيها أولى ؟ . . . .

٣٦ — كثرة الوجوه فى النظام

ليس أن النظام يعجز أكثر الأفهام عن ادراكها ، فان من السور ما ترى نظامها واضحاً .بل ربما ترى أن السورة أو الجملة محتملة لوجوه كثيرة فى نظامها ، و لا باس بتعدد النظام . فان ذلك مما يسوغ فيه كثرة التاويل اذ لا تضاد فى كثرة وجوه المناسبة ، كما لا تضاد فى كثرة وجوه الحكمة فى أمر واحد .

ولكن الاشكال كل الاشكال فى تعيين ما هو النظم الصحيح المراد . و ذلك ما يرد الكلام إلى وحدانية ، ثم إلى نظم بالسابق و اللاحق حسب ما يوجد بين الآيات . ثم بعد ذلك لا بأس بكثرة وجوه المناسبة .

مثلا تجد بين الصلوة والنحر مناسبات كثيرة ، فلابأس بهذه الكثرة .

و أما من قال أن النحر هو وضع اليدين على الصدر ، أو توجيه النحر إلى القبلة ، فلم يخالف النظام ولكنه ذهب إلى غير المراد . والمقصود ههنا محض التمثيل لا اثبات الصحيح و ابطال السقيم . . . .

. . . .

٣٧ -- المثانى

وهى المعاقد و المفاصل و المعاطف ، سمها أيها شئت

لا يخفى أن كثيراً من القرآن ظاهر النظم ، و إنما يخفى جهة الوصل فى مواضع معدودة ، حيث ترى الكلام كأنه أخذ سمتا آخر . فهناك عقد و اتصال و هى معاطف الكلام ، و هى أكبر ما يهم من يلتمس النظم فلابد من تعيينها ، و الوقوف عليها ، و التامل التام فيها .

فعند النظر فى النظام لا يهمك أولا إلا هذه المعاطف . فاذا اطمأنت بوصلها ، اطمأنت بنظم السورة .

و لقد علمت أن النظام هو الاقليد لصحيح التاويل ، و الحكم الفاصل بين التاويلات المتبائنة . فلا ينبغى أن ترتضى فيه بالهوينا . فان كلام الرب تعالى لا يكون واهى النظم كما أنه لا يكون خلوا عنه بل كما قال الامام الرازى رحمه الله تعالى : ان اكثر لطائف القرآن فى حسن نظمه . . . .

٣٨ — معالم السور من المهمات

(١) لا يخفى على أهل النظر و التميز أن آيات السورة ليست كلها متساوية فى الأهمية ، فانك ترى بعضها ترتفع من بين أطرافها . و ذلك هو الانسب من جهة الحسن و من جهة التعليم . و هذا التفاوت كما هو ظاهر من جهة النظر فكذلك قد صرح به النبى صلى الله عليه وسلم حيث دل على مزية بعض الآيات مثلا . . . . .

و إذ كان الأمر كذلك . لابد من النظر الخاص إلى هذه الآيات .

فيعتنى بتوضيح محاسنها و مطالبها ، و بالدلالة على أعيانها ، لكيلا يمروا بها صما وعميانا .

و الآن نورد بعض الأمثلة ، أنظر إلى سورة الحديد لا يمكنك الاغماض عن رفيع منزلة هذه الآيات :

(الف) : «هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم» .

(ب) : «يوم ترى المومنين و المومنات يسعى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم» إلى قوله «و ظاهره من قبله العذاب» .

(ج) : «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله الخ» .

(د) : «اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم الخ» .

(ه) : «و أنزلنا معهم الكتاب و الميزان الخ» .

(و) : «و رهبانية ابتدعوها الخ» .

(ز) : «يوتكم كفلين من رحمته الخ» .

(ح) : «لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون الخ» .

وهذا هو مرادنا من معالم السورة .

فانك ترى فى كل سورة ما يكون نادرة وليس ذلك ما نريد بالعمود ، و لكن النظر إلى معالم السور من المهمات ، و ربما يعين على استخراج العمود . و لا جامع لهذه المعالم ، فانها تجلب الالتفات من جهات مختلفة : فبعضها من جهة اللغة ، و بعضها من جهة الاعراب . و بعضها من جهة البلاغة ، و بعضها من جهة التاريخ ، و بعضها من جهة الفقه ، و بعضها من جهة الحكمة و هلم جرا . غير أنها تستدعى التوجه فى أول النظر كأنها نار على يفاع . فلا يسوغ التغافل عنها .

ثم إذا صرف التوجه لاستخراج العمود و النظام، لزم امعان النظر في دلالة الكلمات و السياق . و حينئذ ترتفع مواضع أخر ، فتكون من معالم السورة من جهة أخرى .

(٢) ما من سورة الاوطا من المعالم ما يختص بها ، سواء فيه الصغار و الكبار ، و لا يخفى ذلك بعد هذا التنبيه . وكلما صغرت السورة كبرت هذه الخاصة ، و لذلك صارت على غاية الاهمية ، و أولى بأن يبسط فيها الكلام حتى يتبين موقعها ، و يتضح أن الله تعالى لم يجعل القصار سورة مستقلة الالحكمة عظيمة ،كما ترى ذلك في سورة العصر وسورة الاخلاص وسورة الكوثر ،وكذلك حتى ترى الصغار هي الكبار من بعض الوجوه .

(٣) و بالجملة فمعالم السورة مع كونها مهمة و جالبة للنظر . لا تغرنك في اختيار العمود . فانما العمود ما يعطيك الوحدانية في السورة و المناسبة بما سبق و بما لحق اما متصلا أو بواسطة . . .

٣٩ — مقادير السور

في جعل بعض السورة على غاية الايجاز و القصر ، كسورة العصر و سورة الكوثر و سورة الاخلاص و ما يقرب منها ، حكمة مرعية . و هي ان الله تعالى وعد حفظ هذا القرآن و ذلك لحفظ هذا الدين الذي قد أكمله الرب و ختم به الهداية . لا لمحض كونه كتاب الله ، فان الكتب السابقة كلها كتاب الله . كما أن كل من أنزل عليه كانوا أنبياء الله ، و قد بدلوا بعدهم تلك الكتب حتى جاء هذا المهيمن .

فلما كان المقصود إبقاء الدين الكامل ، جعل الأصول الكلية الجامعة

على غاية الايجاز و الوضاحة ، حتى أن الأمة و إن لم يكونوا قادرين على حفظ الكتاب بتمامه على انفرادهم ، فلا يصعب عليهم حفظ هذه القصار في صدورهم .

و لذلك ترى هذه القصار مخصوصة بمعنى واحد ، فجعل سورة الاخلاص للتوحيد و جعل بيان التوحيد فيه على غاية الايضاح ، فان التوراة و الانجيل مع تعليمهما التوحيد لم يأتيا بمثل هذه الوضاحة . و كذلك سورة العصر قد تكفلت باصلي الدين : الايمان و الأعمال . و كذلك سورة الكوثر قد تكفلت بالبشارة . وكذلك سورة الزلزال قدمت في كمال الدينونة بالقسط مع مراعاة رحمة الرب (١) . و لذلك حث على حفظ هذه القصار ، بما ذكر من كون بعضها ثلث القرآن و بعضها نصف القرآن .

٤٠ — ترتيب السور

(١) كما أن الآية التي نزلت من بعد ، و ضمت بما تناسبها . فكذلك بعض السور ضمت ببعضها ، لمناسبة المتأخرة بالمتقدمة ، للتفصيل أو التشديد أو الموافقة في المعنى ، و ههنا يجب أن تميز بين السورة المستقلة والتابعة .

و ربما تكون التوابع متعددة . و ربما يكون للتابعة تابعة أخرى ، ثم بعد التابعة ترى الاتصال بين المستقلتين ، سواء كان الاتصال بين التابعة و المستقلة التالية لها أو لم يكن .

(١) بعض مجالس الخرد ، سألني سوالات في آخرها مسئلة التناسخ و كان يزعم بأنها محققة ، فاوضحت له معنى هذه السورة ، فاطمأن و شهد بان الاسلام حق . (منه رحمه الله تعالى)

وربما تكون السورتان المتصلتان مستقلتين من جهة والمتبوعة والتابعة من جهة أخرى .

ثم لابد مع استقلال السورتين المتصلتين من كون المتقدمة أولى بالتقدم ، مثلا سورة البقرة وسورة آل عمران مستقلتان ، و مع ذلك ، الأولى أولى بالتقدم لكون السابقة سورة الايمان و جامعة تامة واللاحقة سورة الاسلام ، و لأن الأولى محاجة باليهود ، و الثانية بالنصارى و لوجوه أخر .

(٢) ووضع الطوال مع الطوال والقصار مع القصار ليس هوالسبب الوحيد للترتيب ، إنما هو من بعض أسبابه . و لذلك ترى بعض المتاخر أطول بكثير من المتقدم .

و أما أنه من بعض أسبابه ، فلأنك تحب المناسبة فى القدر كما تحب المناسبة فى المعانى . و لأن القصار لو فرقت بين الطوال لصارت مغمورة ، كما أن النجوم مغمورة فى ضوء النهار . ألا ترى كيف سمى النبي صلى الله عليه وسلم سورتى البقرة و آل عمران الزهراوين . و هكذا ترى المدونين للكتب يضعون الصغار بعد الطوال . و هكذا ترى فى التوراة ، فوضعت الصحف الخمس قبل كتب الانبياء . . . .

٤١ ـــ وضع الأوائل نزولا فى الأواخر ترتيباً

أكثر ما نزلت من السور أولا ، وضعت فى آخر القرآن . حتى كان ترتيب وضع السور على عكس ترتيب نزولها . و ذلك لأن القرآن للقراءة و الدرس ، و القراء عند تمام النزول أقرب حالا بأوائل القرآن كما ستعلمه .

فلو قرءوه حسب ترتيب النزول ، بعدوا عن ما بين أيديهم و بدءوا بأبعد ما كان عنهم . و هذا يشبه بان الرجل إذا رقى فى سلم و بلغ رأسه ثم أراد العود إلى بدء رقيه ، فلا يبدء باول الدرجات . فهذا سير دورى ليس فيه انقطاع و يسهل فيه التنقل ، و هذا أهون .

و الترتيب فى كلام العرب هكذا . فاذا كان لف و نشر ، فهم يعودون من الآخر إلى الأول بالتدريج ، و هكذا فى غير اللف و النشر إذا اجتمع سيران .

وترى ذلك فى منطقهم ، فاول الشكل وهو أسهله على هذا الترتيب ، وترى ذلك فى قوله تعالى : (أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت ، فبدء بما هو أقرب وأمامهم ، وإلى السماء كيف رفعت ، فارتفع النظر . ثم عاد من السماء نزولا فقال : ، و إلى الجبال كيف نصبت و إلى الارض كيف سطحت) فنزل بالترتيب و التدرج كما ارتفع .

و أما غير المسلمين ، فيصعب عليهم هذا الترتيب . فلهم أن يقرءوا من الآخر إلى الاول ان شاءوا ، كما فعل المسلمون فى أول أمرهم .

من افاداته رحمه الله :

ترتيب مطالب القرآن نزولا

أمر الله تعالى نبيه بتلاوة القرآن و الصلوة سراً و جهراً ؛ لكي يزداد قوة و ثباتا ، و لكي يسمعهم من غير صريح الدعوة .

ثم أمره بالدعوة و التبشير و الانذار ؛ و تقبيح الشرك و الخلاعة ، و الحث على التقوى و الانابة ، و فعل الخيرات من الجود و الكرم و الحلم على سبيل الكلية و الحكمة ، حتى اذعنت له العقول و خضعت له القلوب ، ممن استمع و استبصر . و لكن أبى و استكبر كثير ، فأمهلهم لمدة ، و اشتغل بالذين آمنوا .

ثم أنزل إليه الشرائع و الأحكام فى خلال الوعظ و الترغيب و الترهيب .

أحوال المسلمين مطابقة بالقرآن ، فانهم تبدلوا من حال إلى حال بحسب ما أمرهم الله تعالى و علمهم بكلامه ، حتى كملوا بتمام الوحي . فالقرآن كانة مرآة لاحوالهم فترى فيه تماثيلهم و ما حولها من الشدة و الزلازل و المجاهدة و المغالبة حتى أعلى الله كلمة الحق و أشرق نوره وهذا بحث يقتضى تفصيلا .

السور القصار الدواخل و أسهل و أجلى ، فالقارئ ينتظرها كالمسافر إلى منزل طيب مريع بهيج . أو كما يوضع على المائدة أحلى الاطعمة فى الآخر ، أو كما أن المرء يترقى من الأرض إلى السماء ، فكلما قرب إلى آخر القرآن قرب إلى معالى الأمور و أصول الدين .

من افاداته رحمه الله :

وجه الفرق بين نظم القرآن و نزوله

(١) انما نزل القرآن حسب تربيتهم ، فنزل ما يبنى عليه الأحكام ، ثم نزل ما فيه الأحكام مع الخلط بالترغيب و الترهيب و تفصيل الأحكام جاء بعد الاجمال .

(٢) نظم القرآن أعطى بأيدى المؤمنين فاعيد إلى ما كانوا فيه و وعى حالهم ، ونزوله أعطى غير المؤمنين . فالنظم يجرى من الحاضر إلى الماضى كما تقرء تاريخا من زمانك إلى الأيام الخالية ، فيكون سيرا من المعلوم الاقرب . و نزوله كان يجرى من الحال الحاضر إلى ما يستقبل بالاجمل فى كليهما واحد أى الاقرب فالاقرب .

من افاداته رحمه الله :

فى اوائل التنزيل نظر إلى تمامة الأخلاق الانسانية ؛ و فى أواخره إلى ما بين أيديهم من الأقوام . فالأوائل كلية و الأواخر جزئية ؛ و الأول أقرب إلى العقول و الآخر إلى الحواس . الأول حاد ، عميق و الآخر بسيط ، ظاهر .

٥٥ ٥٥ ٥٥

٤٢ — موقع الكلام من الوقائع و الأحوال

(١) مما يعين على فهم النظام ، تعيين موقع الكلام ، و فى الكلام دلالة ظاهرة وخفية على موقعه باقتضائه . مثلا هديت إلى نظم قوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى) من النظر فى موقعه . و ذلك بعد أن هديت إلى مواقع التسبيح .

فقد يومر النبي به ، لما يرى أثر تعليمه ، و قد كان ينظر فى أحوال الصحابة ، فاذا رآهم كما ينبغى كان عليه الشكر و الحمد . مثلا فى سورة النصر و فى قوله تعالى : (وتوكل على الحى الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين) ، سورة الشعراء آية : ٢١٨-٢١٩ ، . فعلى هذا أمر بالتسبيح حين رآهم يصلون و ينفقون ، و انتفعوا بذكره فهدوا إلى ما قدر ، و كانوا كما حكى عنهم : (كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع) ، ، سورة الفتح آية : ٢٩ ، .

و قد يومر بالتسبيح و الصلوة إذا حزن على مخالفة المكذبين فذلك للتثبت و التسلى و الاستراحة و الرجوع إلى الموافقين . و على هذا جاء فى كثير من السور .

و قد اجتمع هاتان الحالتان حين نزول سورة الأعلى ، فترى فيها ذكر طائفتين . و كان عليه السلام قد غلب عليه التبتل والانحياز إلى تلاوة القرآن و الصلوة و امهال المكذبين ، فامره بجمع الأمرين : تسبيح الشكر و الاستعانة و تذكير الناس ، و سلاه بانه هو الهادى و المتكفل باقرائك و تيسير أمرك ؛ فانه يجرى الخلق إلى ما قدر لهم : فمنهم من يذكر وينتفع بذكرك إياهم ، و منهم من يتجنب ، فكن شاكرا و عاملا ، و لا تحزن

على مخالفة من يخالفك و أسلك على رسلك : (فذكر ان نفعت الذكرى) فلا الحاح و لا ترك ، فانهم يجرون حسب أحوالهم : إما إلى الهداية ، و إما إلى الحرمان . إما إلى الفلاح ، و إما إلى الشقاوة .

(٢) إذا وقفت على جملة من الآيات اللاتى تراها غير مربوطة وتاملتها مرة بعد مرة ، فربما هديت بنعمة من ربك الى الأمور والأحوال ، كانك تراها مصورة ، مكشوفة و حينئذ ترى النظام على غاية المطابقة بها ، كما هديت إلى نظام أواخر سورة هود و فيه مثال لهدايات عملية من باب الحكمة . . . .

من افاداته رحمه الله :

ما كان قوم اعلم بمواقع السور من اصحاب رسول الله و لم يراعوا ترتيب النزول إلا فى ما باء كالبيان و التفسير .

فاعلم أن القرآن للذكر و جلب القلوب الى ربها فالمخاطبون فى أول الرس ما كانوا كالمخاطبين بعد ذلك . كان الناس تضيق صدورهم عن الحق و يمنع صممهم الصدق ، فكلموا :

باوضح الحق كالتوحيد و القيامة .

و ابدال الكلام .

و شدة الحوة كالقسم و تصوير القيامة و العذاب .

و ايجاز العبارة ليخف حلها .

و سجع الفقرات لتعقلهم بها .

و سذاجة النظام ليتبين الغرض .

فلما ظهر الحق و انتشر و توسعت الصدور للايمان و لانت له القلوب و اصغوا له التدبر ، و قد أثرت فيهم صحة النبي و محاورته بهم ، رقاهم الى ربوة الحلم وافق البصيرة .

٠٠ ٠٠ ٠٠

٤٣ — النظم التاريخى

(١) تنتظم الأمور على أنحاء كثيرة ، فلابد لمن يلتمس النظام أن يحضر هذه الأنحاء .

ومنها تقاربها فى الزمان : مثلا زمان الدعوة الأولى ، فامورها منتظمة من جهة الزمان ، فلا يبعد بعضها عن بعض . و هكذا قبيل الهجرة ، و هكذا على أثر الهجرة ، ثم بعد التمكن فى المدينـــة ، ثم قبيل الفتح و بعدها فامور هذه الازمنة معلومة متمايزة ، و على هذا الأصل جرى قول السلف فى تقسيم السور فى مكية و مدنية ، أو جعل بعض آيات المكية ، مدنية أو بالعكس .

بعد ما علمت ذلك فاعلم أنهم لم يقسموا إلا بين المكية و المدنية ، و لكنك ان جريت على أصولهم وقفت على تميز أخص مما ذكروا . فلا يخفى عليك أمور الدعـــوة الأولى و طرفى الهجرة و طرفى الفتح ، ثم بعد ذلك ما هو أخفى ، و هو نظم الامور التى تقع فى المستقبل . وذلك بان القرآن قد تضمن الاشارة إلى ما يقع على الامة ، فهدى الى ما يحتاجون اليه . و قد علم الصحابة رضى الله تعالى عنهم و بينوا لنا مصداق الاشارة فى ما وقع بعد النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) فعلى هذا الاصل تهتدى الى بعض الاشارات ، ولا تنقضى الا فى الدار الآخرة ، فهنالك يتم تاويل الآيات و نذكر بعض الامثلة لتكون أنموذجا و دلالة لما قرب و لا حت مخائله :

فـــمنها ما ورد فى أواخر سورة هود ، و قد نـــبه عليـــه النبي صلى الله عليه وسلم كما ستعلم ان شاء الله تعالى .

و منها ما جاء في سورة الحجرات . و قد روى عن الصحابة حملهم ما فيها على الوقائع التي أشارت إليها السورة .

واعلم أن الاشارات مختومة حتى تظهر الوقائع فحينئذ يتنبهون لتاويلها الا أهل القلوب الصافية . و لكنهم أصحاب الكتمان . فلو بينوه كذبهم الناس الا قليلا و على هذا الأصل بقي أواخر سورة هود مكنونة . ولولا الخوض على النظم ، لعلها لم يكشف القناع عن وجهها . (و قد جعل الله لكل شيء قدرا) و هذا مبسوط في باب الاشارات الالهية . . . . . .

. . . . (بياض في الاصل) (١)

(١) لم يبين الأستاذ الامام رحمه الله في هـذا المقام ما لاح له بالنظم في أواخر سورة هود ، و هكذا لم يبين ما ظهر له من الوقائع الآتية في سورة الحجرات . بل ترك البياض في مواضعها ، فراجعت إلى مخطوطاته لعل أجد منها ما يكشف القناع عن وجهها . فوجدت فيها ما يشير إليها . فأحببت أن أذكره هنا تتميما للفائدة . (الجامع) وها هو ذا :

« قال الأستاذ الامام الفراهي رحمه الله تعالى في سورة هود تحت آية ١١٠ : (فاستقم كما أمرت و من تاب معك و لا تطغوا إنه بما تعملون بصير) أي يأتيكم ما وعد الله من النصر و الغلبة و حينئذ يفتنوا بينكم الغنى و يقل التوجه إلى الرب ، فيقع الطغيان فلا تخافون الرب و لا تنصفون بعضكم بعض و كلاهما أهلككم بأنكم الآن مستغنون عن الرب تعالى و عن أنصاركم كما قال تعالى : (إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى) ثم تصيرون لاختلاف قلوبكم بالفشل وتتخذون أولياء من دون المؤمنين و هذا أسوء ، فيخذلكم الرب و يذهب ريحكم من أعدائكم كما قال تعالى : (ثم لا تنصرون) و كل ذلك وقع . فدل على دوام ذلك فأمر المسلمين بالرجوع إلى الرب و ذلك بالتمسك بأول سبب الرحمة و النصرة و هو بالصلوة و بالصبر عليها و الانتظار بفرجها و ذلك باليقين بالنصرة من تاب ، و الهلاك لمن لم يتب ولم يرجع إلى الرب . و هكذا وقع في الأمم الخالية و كذلك في هذه الأمة ، انهم اختلفوا في الكتاب نفسه و هذه الأمة اختلفت في العمل به .

و قوله تعالى : (لا تركنوا إلى الذين ظلموا) جامع للنهي عن الاعتماد على الكفار و عن الاطاعة لأئمة الضلالة الذين يصرفون الناس إلى غير الطريق التي جعل الله النجاة فيه .

ثم قال : (فلولا كان من القرون الآية) أي هكذا يكون في هذه الأمة قليل من الصالحين و لا يأتي العذاب الا إذا سكت الناس و لم يصلحوا . » ✱

٤٤ — الكلام في نظم السور بعضها مع بعض

و بيان النظم العمومي

(فصل في غاية الأهمية)

إعلم أرشدك الله تعالى أن أصل القرآن ما نزل بمكة ، و أما ما نزل بالمدينة ، فادرج فيه وضم معه فصار كالجان المفصل . قال تعالى : (كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) فهذه اشارة إلى أصل راسخ في ترتيب الآيات و السور .

فترى كل جملة من السور ، تبتدي بالمكية و تختم بالمدنية . أو ترى جملة من المكيات قد ادخل فيها سورة واحدة أو أكثر من المدنية . و هذا مثل ما ترى في ترتيب الآيات . فربما جعلت آية أو أكثر في آخر السورة ، أو أدرجت كالجملة المعترضة في غضون الآيات . فهكذا ترى في وضع المدنيات : إما في عقب السورة المكية أو في درجها .

★ و قال الأستاذ الامام رحمه الله في سورة الحجرات تحت آية ١ - ٨ ما نصه :

« ذكر أمور تجب على الأمة في جنب الرسول و حول هذا الوحي إلى زمان استدعاء ، ثم ذلك تمهيد ما وقع في عهد عثمان رضي الله عنه ، فقد شغبوا حوله ونادوه من وراء الحجرات ولم يصبروا ولم يتبينوا ما جاء إليهم من نبأ ، فهذه الآيات تمهيد لما بعدها و قد ذكر ما وقع بين الأمة . »

ثم قال الأستاذ الامام تحت آية ١١ - ١٣ ما نصه :

« بعد سد أبواب البغي و الفساد ، ذكر أسبابه و سد أبوابها . فنهى عن السخر و اللمز و نبز الالقاب وسوء الظن والتجسس والغيبة والتفاخر . وجمع النبي هكذا في خطبته في حجة الوداع : " ألا إن دماءكم وأموالكم و أعراضكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا اسمعوا مني تعيشوا " .

فنهى عن مقدمات الخصام و اختلاف القلوب ، فلا يصلح أمر أمة فيها هذه الخصائل الدنية ، و لذلك لا تتفق كلمة المسلمين في أيامنا ، فهي و إن كان فيها عدم ، فهي عند الراسخين خطب عظيم دائم . »

و اعلم أن المدرجة ربما تكون هي ايضاً مكية ، مثل الآيات المدرجة أو المردفة . و بالجملة فالحكم بكون عدة من السور جملة واحدة ، مبنى على الاستدلال بالمطالب . و أما التقسيم في الجملات على حسب الاحزاب ، فانما كان من جهة المقدار و شئ من المطالب ، و قد اختلفوا فيه . و ليس ما نذكر من التقسيم مبنياً على المطالب ، بل المقصود في هذا الفصل هو التنبيه على موقع المدنيات من المكيات .

١ : سورة الفاتحة و هي مكية ، مع أربع مدنيات جملة واحدة ، مع أن الفاتحة لها نسبة بمجموع القرآن . (١ — ٥)

٢ : سورة الانعام و الاعراف مكيتان ، مع الانفال و البراءة المدنيتين . (٦ — ٩)

٣ : سورة يونس الى سورة الانبياء اثنتا عشرة سورة كلها مكية مع سورة الحج . و هي عندى مدنية لما تتضمن الجهاد و القتال و الهجرة . (١٠ — ٢٢)

٤ : سورة المؤمنون المكية مع سورة النور المدنية ، و لعلها مدرجة . (٢٣ — ٢٤)

٥ : سورة الفرقان إلى سورة الم السجدة ، ثمانى مكيات مع مدنية واحدة . و هي سورة الاحزاب . (٢٥ — ٣٣)

٦ : سورة سبا إلى سورة الاحقاف ، ثلاث عشرة مكية ، مع سورة محمد الى سورة الحجرات ، ثلاث مدنيات . (٣٤ — ٤٩) .

٧ : سورة ق إلى سورة الواقعة ، سبع مكيات مع سورة الحديد إلى سورة الطلاق عشر سور مدنيات . (٥٠ — ٦٦)

٨ : سورة الملك الى سورة الاخلاص جملة واحدة ، قد ادرج فيها سورة المطففين و هي مكية ، و سورة النصر المدنية ، و سورة اللهب المكية التي نزلت قبيل الهجرة . (٦٧ — ١١٢)

٩ : سورتا المعوذتين المدنيتان ، جملة خاتمة ذات اتصال بتمام القرآن و بما قبلها ، مثل سورة الفاتحة ذات نسبة بما بعدها و بجميع القرآن . (١١٣ — ١١٤)

٤٥ — عمود السور اجمالا

(ك : علامة مكية و د : علامة مدنية)

(١) سورة الفاتحة : جامعة كالديباجة ، ففيها مفاتيح لجميع ما في القرآن . (ك)

(٢) سورة البقرة : سورة الايمان المطلوب ، و هو الايمان ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، لجمعت دلائلها . (د)

(٣) سورة آل عمران : سورة الاسلام ، و هو طاعة النبي صلى الله عليه وسلم فهي أشبه بالسابقة لما أن الاسلام إنما هو الجانب الظاهر من الايمان . (د)

(٤) سورة النساء : كالرداء لسورة الاسلام ، بما أنها تبين أن الشريعة رحمة على الناس كافة و كذلك صاحبها . (د)

من افاداته رحمه الله :

ليس ترتيب السور حسب مقاديرها : فان الفاتحة قريب ١/٤٠ من سورة البقرة ، و سورة ابراهيم أقل من نصف سورة النحل . وسورة الفرقان ثلث سورة الشعراء . وسورة الم السجدة أقل من نصف سورة الاحزاب . وهكذا في ما بعد أيضا ترى سورا صغارا وضعن قبل أكبر منها .

(٥) سورة العقود (المائدة) : مثل السابقة يذكر بناء الاسلام على العهد الالهى و يذكر أواسط هذا العهد و نهايته . (د)

(٦) سورة الانعام: موقع الأحكام من عهد التوحيد ، ليسد أبواب الشرك . كما قال تعالى : (و ما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) ، سورة التوبة آية : ١١٥ ، (ك)

(٧) سورة المص (الاعراف) : تنذر أهل القرى و توعدهم بالهزم و غلبة الحق . (ك)

(٨) سورة الانفال : فى فرائض الجهاد و وعد سطوع الحق و التطهير . (د)

(٩) سورة التوبة : غلبة الحق و الجهد فى التطهير . (د)

(جملة ثانية)

من سورة ١٠ — إلى سورة ٢٤ — انذار و تبشير ، و اجراء الكلام من وسط النبوة إلى وسط الهجرة بالترتيب الزمانى .

(١٠) سورة يونس : تبشير و انذار أخروى خلاف اليهود الذين تبطوا عن الكمال ، فاخلدوا إلى الأرض . (ك)

(١١) سورة هود : تخويف أهل مكة حيث قال : (ذلك من انباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد) ، آية : ١٠٠ ، والأمر بالصبر ، و القطع من الكفار ، ترشيحاً للهجرة و النصر ، و فيها اثبات أن الشرك و الكفر بالمعاد يجر إلى فساد الاخلاق بالكلية و الهلاك ، فيهلكون ، و المومنون ينصرون . (ك)

(١٢) سورة يوسف : اشارة إلى قرب الهجرة و تمثيل للفرج بعد اليأس و غلبة الحق . (ك)

(١٣) سورة الرعد : للعذاب وقت و يوخر لكى يتوبوا . و يقدم عذاب الدنيا للتنبيه . (ك)

(١٤) سورة ابراهيم : فى عموم سنة الفتح للمومنين و انتقام الكافرين بعد الهجرة . (ك)

(١٥) سورة الحجر : فى أن لعذاب المنكرين وقتاً معلوما قاصيا. (ك)

(١٦) سورة النحل : و قيل مدنية و عندى أنها قبيل الهجرة . فيها جواب منكرى القرآن ، و أحكام تنسخ بعض ما فى التوراة حيث قال : (و إذا بدلنا آية مكان آية و الله أعلم بما ينزل قالوا إنما انت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) ، آية : ١٠١ ، و ظن المشركين حيث قال : (و قال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن و لا آباؤنا و لا حرمنا من دونه من شئ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) ، آية : ٣٥ ، . (ك)

(١٧) سورة بنى اسرائيل (الاسراء) : فى البشارة والانذار حيث قال : (ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المومنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً و إن الذين لا يومنون بالآخرة اعتدنا لهم عذاباً أليما) ، آية : ٩ - ١٠ ، و الأمر بالعمل الصالح الذى به الفلاح . و وجه الكلام إلى اليهود . (ك)

(١٨) سورة الكهف : فى الانذار و البشارة و الصبر للوقت الموعود حيث قال : (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا و جعلنا لمهلكهم موعدا)

« آية : ٥٩ » و وجه الكلام إلى النصارى . (ك)

(١٩) سورة مريم : في البشارة و الانذار حيث قال : (فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا) « آية : ٩٧ » والانتظار . (ك)

(٢٠) سورة طه : قبيل الهجرة . وأمر فيها بانتظار الفتح حيث قال في آخرها : (قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من اصحاب الصراط السوى و من اهتدى » (ك)

(٢١) سورة الانبياء : في اقتراب عذاب كفار مكة ، و هي قبيل الهجرة . (ك)

(٢٢) سورة الحج : في الجهاد و هلاك القرى ، بعيد الهجرة متصلة بما قبلها . (د)

(٢٣) سورة المؤمنون : متصلة بما قبلها في فلاح المؤمنين الصالحين و هلاك المكذبين . (ك)

(٢٤) سورة النور : للطاعة في أحكام المعاشرة و التمدن . و تتمة للسورة السابقة . (د)

(٢٥ — ٣٢) ثماني سور كلها مكية : في وعد الموحدين المؤمنين بالفوز و نصر الله . (ك)

(٣٣) سورة الاحزاب : في ميثاق النبوة و الطاعة ، و قد علمت في بحث كيفية النزول أن تعليم الأحكام حولت على الوقائع . (د)

(٣٤ — ٤٦) هي ثلث عشرة سورة كلها مكيات : في التوحيد و القيامة و ضرورة النبوة و وعد النصر . المثناة : الحمد لله . و الثلاث : قسم

بالقرآن و الملائكة و القرآن . ثم البواقي تبتدء بذكر القرآن ، و السبع الآخرة حواميم . (ك)

(٤٧ — ٤٩) ثلث سور مدنيات ، في الحرب و الفتح و كبح جماح الفاتحين . وهذه السور الثلاث مرتبات ، وأولاها انجاز ما في آخر سورة «٤٦» من النصر و هلاك الفاسقين و خذلانهم . (د)

(٥٠ — ٥٦) سبع سور كلها مكية ، في الانذار بالقيامة و التذكير بالقرآن . (فربما صرح بواحد منهما أكثر من الآخر و ربما خلطهما بحيث ترى انهما أمر واحد) و بعد اكمال التذكير براءة و اذعان لمشيئة الله و هو التسبيح . (ك)

(٥٧ — ٦٦) عشر سور ، في اليهود و أوليآئهم و تحذير المؤمنين عن عاداتهم ، ووعد الفتح والغلبة . فهن سور البراءة والتطهير . وآخرهن خاتمة سور الأحكام . (د)

(٦٧ — ٧٦) عشر سور ، في الملك الالهي واشتمالها ارسال الرسل و النذر ، و فيها أمر النبي بالصبر لحكم الله و التوكل عليه . (التفرد بالملك يوجب ارسال الرسل) . (ك)

(٧٧ — ٨٦) عشر سور ، في تخويف المكذبين الفجار ، ذوى الأموال ، و التفات الكلام إليهم ، و ان الله يكفيهم فأمر النبي بامهالهم مليا . (ك)

(٨٧ — ٩٦) عشر سور ، فيها التفات ظاهر إلى النبي ، و أمر له أن يشغل بالله ، و يذكر الناس على سبيل الابلاغ المحض ، لقرب يوم الفصل . فختم الكلام بقوله : (سندع الزبانية . كلا ! لا تطعه و اسجد و

اقرب) . (ك)

(٩٧ — ١٠٤) ثمانى سور ، فى رفيع منزلة هذه النبوة ، لمدارها على الرحمة و هى ملكوت الله . و ابطال أهل الشح و الدنيا ، تمهيداً لما يتلوها تفصيلا . (ك)

(١٠٥ — ١١١) سبع سور ، فى تدمير الاعداء و النصرة و الفتح على أهل الشوكة . (كد)

(١١٢) سورة واحدة كالخاتمة للقرآن ، فى التوحيد المحض . و هو القطب والمرجع للدين الالهى الفطرى الازلى الابدى . ومتصلة بما قبلها من جهة أنها الهجرة المحتوية القاطعة حبال الشرك و المشركين و اليهود ، و هى أشد السور على النصارى . و هى مشابهة بالفاتحة . فى أولها توحيد و آخرها ابطال بدعة اليهود و النصارى (١) (ك)

(١١٣ — ١١٤) سورتان فى الاستعاذة بالله ، كما أمرنا الله بالاستعاذة عند قراءة القرآن حيث قال : (و إذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) و هما متصلتان ، بالصمد ، فانه الملاذ و المرجع . (د)

(١) الفاتحة و الخاتمة متشابهات . مثلا : (اياك نعبد و اياك نستعين) يشبه (الله الصمد) و (لم يلد) فى اليهود ، مثل (المغضوب عليهم) و (ولم يولد) فى النصارى ، مثل (الضالين) فهذا من العود على البدء . (منه رحمه الله)

٥٥ ٥٥ ٥٥

٤٦ — تلخيص مطالب السور و نظامها

(١) سورة الفاتحة : صلوة . موفية . (سبعاً من المثانى)

(٢) سورة البقرة الم : القرآن و التوحيد و البعثة و الاسلام وقبلته و الصلوة و الجهاد و الحج . احلال الطيبات و تحريم القرابين الباطلة و الميتة و الدم و الخنزير . القصاص . الوصية . الصوم . رعاية أيام الحج و الجهاد و الحج و السلم و الصدقة و الجهاد . تحريم الخمر و الميسر . اليتامى و تحريم النكاح المشركات و الطهارة و التوبة . الايلاء و الطلاق والرضاع . الصلوة . الجهاد . الانفاق . الربا . الدين . الرهن . الشهادة . دعاء التسهيل و العفو و النصرة .

(٣) سورة آل عمران الم : القرآن . وعد النصرة و الملك والعزة تمثيل نصرة موسى وعيسى . دعوة أهل الكتاب والزام نصرة النبي عليهم . اثبات البعثة . ايلاف المومنين و جعلهم أمة مقسطة متحدة منقطعة من الكفار . مثال النصرة للمومنين فى حنين و بدر بالملائكة . تحذير عن الربا و حث على الصدقة و وعد الغلبة و التسكين و التثبيت و وعد النصرة . وهنهم من الفشل و التنازع والعصيان . عفو وتسكين . بشارة . تثبيت . سيرة المومنين من التفكر و التقى و السبقة إلى الخير و الاستغفار و دعاء النصرة فى الدنيا والمغفرة فى الآخرة . الاستجابة بنصرة المظلومين ومخفرتهم . أمر بالصبر و الاتحاد و التقوى .

(من مقابلة مضامين وخواتم هاتين السورتين يعلم أن تقديم الأولى على الأخرى يوافق القياس)

(٤) سورة النساء : صـلة الرحم . القسط باليتامى . تعدد النكاح للقسط باليتامى . الرد إلى وحدة النكاح للقسط بالنساء . حق النساء على أموالها . رعية السفهاء . رد أموال اليتامى وقت رشدهم . تسوية الرجال والنساء فى أموالهم . المعروف بذوى القربى و اليتامى و المساكين عند قسمة الميراث . تعيين الميراث لحفظ اليتامى كيف نفعل بالمسىء منا . حق النساء باموال آتاها الزوج . محرمات النكاح . حرمة مال المومن كحرمة دمه . حق المولى . قيام الرجال بامر النساء و طريق المصالحة بينهما . التوحيد ، الاحسان بالوالدين و بذوى القربى و الجار و ابن السبيل و الغلام و لين الجانب و الجود . وعد المغفرة و عظم الاجر و شفاعة النبي كافة . طهارة الصلوة ظاهرها و باطنها . سلب الله النعمة عن أهل الكتاب لخيانتهم و عصيانهم وشركهم ، حسدهم علينا .

يامرنا بالامانة و العدل و الاطاعة للعقلاء والنبى . المطيعون مع النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و هم رفقاؤهم . فهذا حزب الله و من خانوا صاروا من حزب الشيطان . اقامة حزب الله لإعلاء كلمته و حماية الضعفاء . اختلاف المنافقين . كف المسلمين عن الغلو فى ترك المنافقين . تحذيرهم عن الخلاط بهم ثم كفهم عن الغلو . الحث على الهجرة . التشديد والتخفيف فى الصلوة فى الحرب . حث على القتال . كف النبى عن رعاية المنافقين و تحذيره عن مكرهم وشركهم . لا رعاية لأهل الكتب ولا لقوم النبى بل العدل و ملة ابراهيم الذى هو أصل لها . جواب سوال فى أمر النساء . التاكيد على الاعتصام بالقسط والايمان الكامل . الاستقامة والحذر عن المنافقين . منافقون من أهل الكتب والعاصون . النبوة ونفى الشرك .

جواب سوال النساء كالضميمة . (نفاذ الحكومة فى أمور البيت) .

(٥) سورة العقود : القيام بعهود الله فى المحرمات من المآكل و المنكح و أصله التقوى و العبادة . التزكية باسم الله و نيته العبادة فى أمر الطعام . و باسم الله و نية الصلاح فى النكاح و بالطهارة و نية التعبد فى الصلوة . القيام بالعهد مع فساد اخلاق الناس و التوكل على الله . تبعات نقض عهد الله من اللعنة و قساوة القلب وحرمان فهم كتاب الله والعداوة فيما بين الأمة و سوء الاعتقادات و مكث النعمة . مثال ابنى آدم للثبات على القسط بكف اليد من الظالم المفسد الا التعزير و هو فى جرم سياسى ١ و من الحاكم ٢ و بعد وقوع الجرم ٣ وعمل الجرم ٤ . حال الناكثين الذين لم يقوموا بالعهد . نهى عن المخالطة بهم . الله ولى الشهداء و وعد الغلبة بهم . سوء أعمال الناكثين و جزاؤها . القطع البين من أهل الكتب الاصلحاء النصارى . تخفيف من الله تعالى فى العهود ان زلت قدم ولمشمث المومنين و الاعراض عمن خالف و ضل . عظم أمر العهود و لزوم شهادتها فى أمور دنياوية ثم شهادة الأنبياء فى يوم القيامة فهذا هو سوال العهد و العقود الالهية و بذلك ظهر عظم ذمة الشهادة .

(نفاذ الحكومة فى أمور أعم مما قبل)

(٦) سورة الانعام : ذكر المشركين و المكذبين بالقيامة و المكذبين بالنبوة . (١٠) انكارهم و عذاب الله فى الدنيا و القيامة . نهى الله عن الشرك و أمر بالتوحيد وهو أول النبوة . شهادة الله على التوحيد والقرآن وشهادة الكتب عليهما . (٢٠) الفرق الثلث وسوء منقلبهم : وهم المشركون و المكذبون بآيات الله والمكذبون بالقيامة (٣٠) خطاب بالمومنين و النبى

بأن يصبروا و يرجوا النصر و ييأسوا عن المكذبين بلقاء الله و يحقروهم فلا يعجلوا بالعذاب و الغلبة عليهم (٣١ - ٥٠) خطاب بالنبي بان أفرغ عن الكفار و أشغل نفسك بالمومنين واصبر معهم و قربهم . (٥١ - ٥٥) فى التوحيد والنبوة والقيامة . (٥٦ - ٦٢) فى التوحيد . (٦٣ - ٦٥) فى النبوة . (٦٦ - ٧٠) فى اجمال القول فى التوحيد والاسلام و الايمان بالحشر. (٧٤) ثم بيان هذه الأمور فى قصة ابراهيم فاثبت التوحيد ثم الاسلام و القرآن و المعاد و ابطل الشركاء (٩٥) أتم الديباجة بالتوحيد و البعث مشتملة على اثبات القرآن بأنه هو يفصل . (١٠٠) شرع فى الاشارة إلى ما افتروا من أحكام الشرك فابطل شركاء الله و أوليآئهم الذين شرعوا دين الكفر. (١١٨) و بخ المومنين على اتباعهم وصرح ما أراد فى أمر الانعام وكفهم عن تولى أوليآء الشيطان وبشرهم بأن الله وليهم . (١٢٨) سوء منقلب أوليآئهم و تصوير القيامة و سبب مكثها ووعيد . (١٣٦) عدد سوء أفعالهم فى أمر الانعام و غيرها مما كان يماثله فقبح ما افتروا من الشريعة الباطلة شركا و كفراً وسفاهة . (١٤١) بيان جر هذه الأحكام إلى الكفر وابطال ما افتروا أنها من الشريعة المنزلة على اسماعيل عليه السلام. (١٤٥) بيان شريعة اسماعيل عليه السلام و ابراهيم عليه السلام ورد اعتراض اليهود فى أمر الانعام واعتراض المشركين وتمسكهم. (١٥١) بيان شريعة ابراهيم عليه السلام و وصيته. (١٥٤) بيان شريعة موسى عليه السلام . (١٥٥) هذا القرآن و حكمة نزوله و وعيد منكريه و القطع عنهم . (١٦٠) غلبة الرحمة و ان لا ظلم . (٦١) الختم على التصريح بأن هـذا الدين هو الصراط المستقيم و ان هذه الأمة خليفة الله حسب مقاديره الحكيمة فى غير ميل

إلى أحد و مدار كلها على الابتلاء ثم الجزاء . (١٦٦)

(فى أن الميثاق بالله و جعلنا خلائف)

(٧) سورة الاعراف : (بتفصيل ما)

أنزل الله كتابا إلى النبي لينذر و يذكر به و إلى الامة ليتبعوه و لا يتبعوا شريعة أوليآء الشيطان . (٣) و الا يفعلوا يمسهم العذاب . فالنبى و الامة كلاهما مسئولان . (٦) والله يعلم فيقص عليهم يوم القيامة و يزن أفعالهم لكى يجازيهم من غير ظلم . (٩) وحق له تعالى أن يسألنا ويجازينا فانه تعالى مكننا فى أرضه وجعل لنا معائش كما يفعل الملك برعيته وخدمه فالاطاعة واجبة شكراً له . (١٠) بل أكثر من ذلك فانه تعالى خلقنا وصورنا ثم جعلنا خليفة فكرمنا بسجدة الملائكة و لعن الذى أبى حسداً و كل من يتبعه . (١٨) واسكنا الجنة فخدعنا ذلك الحاسد حتى نزع عنا حلة الكرامة و لكن ذكرنا الله عداوته و تاب علينا و اهبطنا فى الارض للابتلاء و أنزل علينا لباساً وزينة بعد ما أفضحنا أنفسنا باتباع الشيطان وهذا اللباس صورة حلة التقوى وأصل الكرامة لكى يذكرها و ما جرى علينا من نبذ التقوى . (٢٦) فاى كفر وحماقة يكون أكبر من أن نعصى ربنا المحسن و نفتتن بمن أفضحنا و نراه بنظر الولاء و النصح و هو و حزبه ينظروننا بنظر الخادعة والعداوة فهم أوليآء الكافرين (٢٧) فهم يجادلون منه وآمنوا بما فتنهم الشيطان به فاتخذوا الفحشاء ديناً وتقولوا على الله بجهلهم . (٢٨) بين الدين الحق الالهى فامر بخمس و نهى عن خمس أمر بالعدل و الصلوة والدعاء الخالص من الشرك واتخاذ الزينة عند المساجد و الاكل والشرب من الطيبات من غير سرف و نهى عن الفواحش ظاهرها فمنها التعرى و

باطنها، وعن الاثم، والبغى بغير الحق، وعن الشرك، وعن التقول على الله جهلا. (٣٣) لزوم الرجوع إلى الله وجزاء من اتبع ما أتى به النبيون (٣٥) و من كذب استكباراً (٣٦) و من تبعهم فافتروا على الله (٣٩) خلود عذاب المكذبين المستكبرين (٤١) ونعيم المومنين الصالحين و اظهار شكرهم على الايمان بالنبي (٤٣) يوذن باللعنة على الضالين المنكرين بالآخرة (٤٥) يضرب بسور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار و على شرفات السور شهداء الله يسلمون على الأمة الصالحة و يشتاقون إليهم ثم يصرفون أبصارهم إلى أصحاب النار فقالوا أعاذنا الله وودعوهم وداع المقت، ثم ادخلوا الجنة (٤٩) حسرة الكافرين و سوالهم و جواب الشهداء بان الله حرم نعيم الجنة على الذين استخفوا بالدين و نسوا يوم الجزاء و جحدوا بآيات الله و كتابه المفصل بالعلم لجهلهم (٥٢) فهم ليسوا بمومنين قبل الشهادة بما أخبر عنه كتابه عن أمور الآخرة فاذا شهدوا يومنون به ويرجون الشفاعة ويطمعون الردة و انى لهم الشفعاء الذين افتروهم اشراكا بالله (٥٣) إنما ربكم الله الذى خلق كل شئ و أمره فهو رب العالمين (٥٤) فان خضعتم له و لم تفسدوا فى الأرض و سالتموه يجبكم (٥٦) هو الذى يرسل الرياح بين يدى رحمته فيحيى بها البلد الميت مخرجا منها ثمراتها فكذلك تحيون (٥٧) وبعض الأرض لاتنبت فكذلك بعض القلوب لا ينتفع بمطره الروحانى الذى ارسل الرسل بشرى بين يديه (٥٨) فقد ارسل نوحا الى قومه بالتوحيد و الانذار نبياً ناصحاً ليتقوا و يرحموا فكذبوه، فنجى الله المومنين وأغرق المكذبين لعميهم فى شركهم (٦٤) و ارسل هوداً إلى عاد كذلك، فنجى برحمته المومنين و حسم المكذبين لاصرارهم على الشرك (٧٢) و كذلك صالحاً بناقته ورجفته لفسادهم (٧٩) و لوطاً بمطره لفواحشهم (٨٤) و شعيباً بشريعته فى الكيل و الميزان و الاصلاح و رجفته لحرصهم (٩٣) فتلك القرى لم يسمعوا نصيحة أنبيآئهم و هموا باخراجهم فاخذوا بالباسآء و الضرآء فلم يضرعوا لما كذبوا من قبل فامهلوا فاهلكوا وهذا العذاب مخوف على هذه القرية (١٠٢).

(فى عظم فرض الخلافة)

. . . . (بياض فى الاصل) (١)

(٤٧)

أمـــثـلة

لحل مشكلات النظام

فى بعض الآى و السور (٢)

(١)

القرآن يعطى العلم و العمل و الحال. فاعلم أن بعض ذلك يتحول إلى بعض، كما أن جملة الخبر تتحول إلى الامر و الانشاء و هكذا بعضها إلى بعض. و بعد هذا الأصل تامل فى بعض الأمثلة لترسخ فى هذا العلم.

---

(١) إن هذا الفصل الجليل لم يكمله المصنف رحمه الله و إن كان رفيع الشان و كثير المنفعة. لكن لا تيأسوا منه، فانه رحمه الله تعالى قد استوعبه فى تفسيره نظام القرآن و تاويل الفرقان بالفرقان. فانه بحث فيه مطالب السور كلها و بين نظامها بتمامها. فانتظروه، فانه غير مطبوع؛ سيطبع عن قريب إن شاء الله تعالى. فانه يشفى غليلكم و تطمئن به قلوبكم (الجامع)

(٢) هذا العنوان منى. قد وجدت أمثلة، فى المخطوطة، مبعثرة، تهدى إلى حل مشكلات النظام فى بعض الآى والسور فرأيت أن اجمعها تحت هذا العنوان؛ لعلها تهدينا إلى معرفة مشكلات النظام و الاعتداد بطريق استنباطه فى مواضع أخرى. جمعتها فى هذا الفصل و أرجو انك أمعنا النظر فيها؛ و أخذنا منها منهجها الصحيح؛ وجدنا عوناً كبيراً وتنبيهاً عظيما لافكارنا فى حل مشكلات النظام فى سور و آى أخرى إن شاء الله تعالى (الجامع).

فقوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) يعطيك حالة الشكر . و (الرحمان الرحيم) يعطيك حسن الظن بالله علماً وحالاً . و (مالك يوم الدين) يعطيك حال التوكل والطمانينة إلى ربك . ثم انظر فى حسن النظم : أول المعرفة هو العلم بالنعم ، و أول الفرائض الشكر . و من ههنا ينشأ العلم بكون الخالق رحماناً و رحيما . و تكرار الرحمة نبه على رحمة تكون على الشاكرين ، فنبه على الجزاء و حث على الدعاء . و غاية التضرع ، التفويض و التوكل . ولكن ما أحسن التوكل بعد حسن الظن . و لحسن رباط هذه الآيات وجوه أخر .

(٢)

قال الله تعالى : (فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى) أى لاتدعوا أن نفوسكم زكية فان الله أعلم بمن زكت نفسه . بان اتقى الله و جانب السيآت . فدل على أن التزكى هو التقوى . يؤيده : (فاما من اعطى واتقى) فالانفاق هو الزكوة . و من الانفاق أن يسد باب الشهوات و يتقى الشح و يؤيده : (و من يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) و يؤيده : (قد أفلح من زكاها) أى من أنفق . و أيضاً : (سيجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى) وأيضاً الانفاق هو الكرم وعلتها العرب ويؤيده : (إن أكرمكم عند الله اتقاكم) . وأيضاً الجود هو الشرف . « اتقوا النار ولو بشق تمرة » .

(لا يصلاها إلا الاشقى الذى كذب و تولى) أى كذب بالعاقبة الحسنى لمن أعطى ، كما قال : (و كذب بالحسنى) و قال : (فلا صدق و لا صلى و لكن كذب و تولى) أى بالمعاد و البعث و الجزاء ، فتولى عن الرب و لم يصل .

(٣)

قال الله تعالى : (و الذين لايدعون مع الله الهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق و لا يزنون)

قد دل نظم الكلام على أن الشرك ظلم عظيم و رجس مبين . ويدل على ذلك السياق والنظائر . أما السياق فقوله تعالى : (و من يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً) .

و أما النظائر فقد جاء الخلود للقتل و حين احاطة السيآت . و أما كون الشرك رجساً متشابهاً بالزنا ، فقد صرح به فى الكتب السابقة ، و أشير اليه فى القرآن حيث جاء : . . . . . .

(٤)

قال الله تعالى: (والسمآء بنيناها بايدوانا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون و من كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله انى لكم منه نذير مبين . و لا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ، إنى لكم منه نذير مبين .) جعل فى جعل الزوجين من كل شئ دلالة على حكمته و قدرته ، ثم على الدار الآخرة المتمة لهذه الدار ، و على المجازاة المتمة للاعمال . و لهذه الدلالة التى هى ظاهرة على السليمى القلوب الذين لا يخرون على آيات الله صماً و عمياناً ، فقال بعد ذكر خلقة الزوجين : (ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين) .

و مثل هذا النظم ترى فى قوله تعالى : (إن فى خلق السمآوات و الارض و اختلاف الليل و النهار لآيات لاولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعوداً و على جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السمآوات والارض

ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار) .

و لما كان خلق الزوجين من كل شئ ، جامعاً لكل ما خلق واشتمل على الكونين ، دل على خالق واحد ، قادر على جميع الخلق فقال بعد ذكر القرار إليه ، إنه لا شريك له ، فانذرهم مرتين : مرة على انكار المعاد و أخرى على الشرك .

(٥)

(فاما من أعطى و اتقى و صدق بالحسنى)

الجود يهدى إلى التقوى ، فانهما من باب واحد . فيهما نفى القساوة وجلب المدح . والجود من باب الشكر ، والشكر أول لسبق النعمة ثم أول العلم بعد علم النعمة ، ، ، معه هو علم الفقر . فالشكر يلزم التقوى والشكر مع الخشوع بذر الصلوة . و التقوى بذرها الاعتقاد بالتميز بين الطيب و الخبيث و الحق و الباطل . فتهدى إلى الايمان بالمعاد . و ذلك يهدى إلى الصلوة . فالترتيب هكذا :

الجود — التقوى — يقين المعاد — الصلوة . و من الصلوة تحصل كل شئ ، فهى مفتاح الفلاح . و الدليل على هذا التاويل أمور :

قال تعالى : (فلا صدق و لا صلى و لكن كذب و تولى) « سورة القيامة آية : ٣١ - ٣٢ » و قال تعالى : (انها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم و انهم إليه راجعون) « سورة البقرة آية : ٤٥ - ٤٦ » .

٥٥ ٥٥ ٥٥

(٦)

قوله تعالى : (و هو القاهر فوق عباده و هو الحكيم الخبير) ليس من الجبر فى شئ .

من تمام معنى الربوبية ، أن لايقع فى ملك الرب تعالى ما لم يشأ ، فالخلق كله يجرى حسب ما قدر حكمة و علماو رحمة . فكما أن الشمس و القمر و النجوم و الرياح و السحاب مسخرات بامره ، فكذلك الانسان و كل مخلوق يجرى حسب ما قدر له . فلو شاءوا أن يقلبوا أمره و يبدلوا تدبيره ، لم يمكنهم . و هذا القدر ظاهر بين من جهة العقل و صريح النصوص . و لكن أخطأ كثير من الناس فى فهم ذلك ، و وقعوا فى اعتقادهم بالجبر . و قالوا ان الله تعالى خلق خلقاً ، ليحلبهم و يلقيهم فى النار من غير سابقة من المعذبين . و هذا كمال اساءة الظن بالرب الرحمن الرحيم ، و اساءة فهم ما جاء به القرآن و النبيون . و إنما غلطوا لعدم فهم موقع هذا الاسم و أمثاله . فلابد أن يزاح هذا الباطل .

فاعلم أن الله تعالى هدى الناس و هيأ أسباب الهداية . و جعلهم سميعاً ، بصيراً . ذوى التميز و الايقان . فلا يترك لهم عذراً لانكار ما بيّن ، فهم مقهورون فى تسليم ذلك . كما أنهم مقهورون فى سائر ما جعل فى فطرتهم . ومع ذلك أراد أن يبتليهم كيف يفعلون فى ما أعطاهم من حرية الارادة و استعمال أسبابها ، فلو اجبرهم على جميع ما يفعلون ، لم يكن معنى الابتلاء ، و لا لالهام الفجور و التقوى ، و لا لوقوع الزجر و اللوم على السيآت . قال تعالى : (انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . انا هديناه السبيل إما شاكراً و إما كفوراً) فجمع ما

فيه هم مقهورون ، و ما فيه هم مطالبون من الارادة و الفعل . وقال تعالى (بل الانسان على نفسه بصيرة و لو ألقى معاذيره) فهم مقهورون فى هذه البصيرة ، لا يمكنهم أن يدفعوا عن أنفسهم اللوم والانقباض والحياء من فعل سيء فعلوه .

و الجبرة يزعمون أنه تعالى قهرهم فى كل شئ . و هذا على مذهبهم فى الأفعال و الارادات كلها . و مستدلهم غير هــذا و لا نريد نقض دلائلهم ههنا . و إنما أردنا أن استدلالهم بهذا الاسم ضعيف جداً ، مع قطع النظر عن النظم . و الآن ننظر فى مفهوم هــذا الاسم مع قرينه و هو الحكيم الخبير .

تذكرة : (١) الحكيم والخبير يقرن بالعزيز و القاهر ، للتنبيه على مواقع هذين الاسمين .

(٢) . . . . (بياض فى الاصل)

﴿٧﴾

نظرة فى نظم آية الكرسى

(١) هذا يقتضى بياناً من وجوه كثيرة ، و لسنا الآن بصدد ذلك ، و لكن أذكر ههنا بعضها .

الحياة كما أنهــا لا تصور من دون ادراك و ارادة ، فكذلك هى لا توجد من غير أن تقوم بها عقدة نظام . و للحياة مراتب و أدناها ما تجد فى كل عقدة بين اثنين . فكلما انحلت عقدة ، اختل نظام وجود . ثم لا يلبث إلا ريثما ينشاء نظام جديد . و دخــل فى تركيب آخر . كما قال : (ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين).

فما من مركب من جزئين و أكثر إلا و فــيه عقدة ، و هى أدنى الحياة . و الحياة تسلب و تعطى ، و لا تزال عقدة الخلق تعقد و تنحل ، فان وجدت لكل خلق حياة . تقوم بتركيبه ، فلابد لكلية الخلق من قائم به و هو الحى القيوم .

لابد من حياة دائمة لقيام كليات الخلق . فلوضعفت و وهنت بنعاس ، سقطت السماوات و الأرض و انحلت عقد تركيبــها . (الحى القيوم ، لا تأخذه سنة و لا نوم . له ما فى السماوات و ما فى الأرض .) ومن ذلك قوله تعالى : (إن الله يمسك السماوات و الأرض أن تزولا و لئن زالتا ان امسكهما من أحد من بعده) الحياة التى بهــا قوام خلق . هى نفسها محتاجة إلى قيوم ، فهى كلمة و أمر منه . (و من آياته أن تقوم السماء و الأرض بامره) و أيضاً : (خلق الموت و الحياة) .

(٢) كما أن تابع الوجود و بقـاء عقدته من قيوم . فكذلك بقاء عقدة الادراك و الايقان بالفواد و البصر و الســمع ، فانها تنحل وتقوى و تشتد . فهو القيوم للعلم كما هو القيوم للحياة . و هكذا الارادة . . . . .

﴿٨﴾

نظرة فى سورة الاعراف

(١) أرى أن سورة الاعراف تتضمن بياناً لأمور ، اجملت فى سورة البقرة و لذلك سميت باسمها و زيدت فيه حرف الصاد ، لما أن فى أواخرها قصة موسى و قومه . فلنذكر بعض هذه البيانات :

(الف) لم يذكر فى سورة البقرة كلمات تلقاها آدم عليه السلام وذكره فى ســورة الاعراف .

(ب) ○ ○ ○ ○ ○ ○ ○ ○ ○ ○ ○ ○ ○ ○ (بياض فى الاصل) (١)

(٢) و لايخفى ان سورة البقرة مدنية و سورة الاعراف مكية، فمن جهة لحاظ النزول و مقتضاه ههنا تلويح بعد البيان. كما ترى فى كثير من القصص و الاستدلالات.

و أما من جهة لحاظ الترتيب، فهنا تفصيل بعد الاجمال، و هذا أصل مستقل للفرق بين هاتين الجهتين، فان مقتضاهما مختلف. و أهل عهد التنزيل مختلفون من الذين جاءوا بعدهم إلى يوم القيامة، فالترتيب الدائم حسب هؤلاء.

(٩)

(الرحمن. علم القرآن. خلق الانسان. علمه البيان)

الكلام، تدل و ترق و تقرب، و اتصال و تجل و تعليم مقالا و حالا.

المتكلم ينطق بلسانه. وكذلك الكاتب بقلمه وكتابه. (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) و كذلك الآيات الدالة. (قالوا انطقنا الله الذى انطق كل شئ) فالذى نصب الادلة كلمنا بالسنتها، و اقرءناها. و علمنا القراءة بما أودعنا قوة الفهم و الاستدلال. ثم علمنا البيان و التعليم باداء ما فى أنفسنا. لولا الكلام، لم يكن حبل و وسيلة بين المتكلم و السامع أو الكاتب والقارئ. الكلام الحقيق واسطة بين النفسين وتادية للارادة. أليست الرحمة من صنف الارادة فكلمتنا بلسان النعم. و كذلك الميزان ناطق مبين و حاكم بالحق الراجح. و هكذا موازين الأجزاء و مقاديرها على حسب رحمة وحكمة، آيات دالة على معانيها من الرحمة و الحكمة.

(١) لما بعض التفصيل فى تفسيره نظام القرآن. (الجامع)

هذه خطفات الفكر ويصعب عليك فهمها، فوضحها بعض الايضاح.

لما كان ربنا الرحمن، لابد أن يسدى إلينا رحمته، و كما أنزل علينا من رحمته جعل فينا الادراك و الاحساس لها. و فى ذلك أمران: اظهار من الرب تعالى، و فهم فينا لما أظهر، فكأنه خاطبنا و اقرءنا ما خاطبنا به. فرحمته أول كلامه و التفاته، و ادراكنا لرحمته و نعمه أول قراءتنا. فكما خاطبنا فكذلك علمنا القراءة، فرحمته كلامه و كتابه، و شكرنا و خضوعنا لربنا قراءة ذلك الكتاب. وهذا من لوازم الرحمة و هذا كلامه القديم المساوق لرحمته. ثم هذا القرآن المنزل، مطابق لذلك الكتاب. ألا ترى كيف بدءه باسم الرحمن الرحيم و بالحمد له. فاقرءنا كتاب رحمته.

ثم لما جعل الانسان ناطقاً، لابد أن يكون فيهم من ينطق و يبين ذلك الكلام الرحمانى و يتلوه على أبناء نوعه. فان البيان من لوازم خلقته و عنصر حقيقته. فاول أمره، شكره لربه. ثم بيانه لمن حوله. فانه كالقلب الفاهم و اللسان المبين فى جسم نوعه، فان من أحس فهو القلب و من نطق فهو اللسان. فالفاهم الناطق هو ترجمان كتاب الرحمة. فالنبى أول وصفه من جهة كونه نبياً. هو تلاوة آيات الرحمة على الناس. و لذلك سمى الرب تعالى آيات الكتاب هدى ورحمة للمحسنين. والمحسنون هم الذين يفهمون بهذه الآيات، فلهم هدى من جهة فهمهم. ورحمة من جهة انهم أعطوا الهدى و تحقق فيهم تلك الرحمة، و من جهة انتفاعهم بما يهتدون بهذا الكتاب لسعادتهم وهو التقرب إلى ربهم.

و كما أن هذا الكتاب، كتاب و قرآن و نطق و بيان، فكذلك آيات الفطرة و خلقة السماوات و الأرض و جريان الشمس و القمر و

اختلاف الليل والنهار و الرياح و السحاب ، كتاب منشور متضمن لآيات رحمته وحكمته . ثم كونها مجرية و مسخرة طائعة ، و بجود النجم و الشجر تسبيحات وصلوة منها ، واسماع لنا لآيات الرحمة والحكمة وتفرده بالربوبية و الملك . فهذا نطق آخر كالصدى يكرر علينا كلام الرحمن تكرار دلالة الانفعال على صفة الفاعل . كما قال : (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى و الاشراق)

(١٠)

و الفجر و ليال عشر و الشفع و الوتر و الليل إذا يسر

الفجر جميل . الجمال له نسبة إلى ما حول الجميل . فانه فى نفسه لا يكون جميلا . ثم له نسبة إلى المدرك الذى يأخذ الجميل مع أطرافه ، ثم يحكم بكونه جميلا . و هذا أظهر فى الشفع و الوتر . فان وجود الشفع هو التصور فى المدرك و إلا فانه وتر و وتر . و هكذا الأمر فى الوتر . فان كون الشئ وتراً أيضاً هو أمر اضافى .

ثم فى الأمر المكروه ، حسن التوقع ، إذا كان موصولا بمرغوب . و من هذه الجهة كل عسر ، تبشير بيسر . فالليل باعتبار كونه ذاهباً مدبراً بشارة بالفجر . و هكذا كل باطل و ظلم . و هذا أيضاً من باب كون وجود الحسن أمراً اعتبارياً ، و الاعتبار فعل العقل كما هو المدرك فالجمال منه و له ، فانه هو المعتبر و المدرك . . . .

•• •• ••

(١١)

نظرة فى نظم سورة و الضحى

(١) ان ازدياد النور بعد الظلام ، ثم ازدياد الظلام بعده ، شاهد بأن هكذا طريق الرب بعباده ، فما ودعك للابد و لا سخط بك إذا كثر الشر فى امتك و قل برهم . فلا شك أن آخر أمركم خير من الاول ، و عن قريب يزيد أمتك حتى تقر عينك . كما وقع بعد فتح مكة . و هكذا يكون فى آخر الزمان كما قال عليه السلام : «أمتى كالمطر ، لا أدرى أولها خير أم آخرها» و هذا لما قال تعالى : (و السابقون السابقون) و قال: (ثلة من الأولين و قليل من الآخرين) .

و قد جعل الله حالك مرآة لحال أمتك ، وجدك يتيما ، فآواك . و وجدك على غير بينة من أمرك لا تدرى ما تفعل ؟ فانزل عليك الوحى . ثم وجدك فقيراً ، فاغناك . و هكذا تكون أمتك ، تصير يتيما و تضل فى أمرها لا تدرى ما تفعل ، كما قال تعالى فى بيان سنته : (نسوا الله فانساهم أنفسهم) و كذلك : (فخلف من بعده خلف اضاعوا الصلوة و اتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً) و كذلك : (فطال عليهم الامد فقست قلوبهم) فهكذا هذه الأمة تضل بعد مرور الزمان وتصير لا ماوى لها ، و تسلب غناها . فاذا وقع عليهم هذا البلاء فما دواؤه ؟ فهدانا بمرآة النبى ، و خاطبه لنعلم ما نفعل . فقال : (فاما اليتيم فلا تقهر و اما السائل فلا تنهر) فهذا دواؤنا .

وأما التحديث بنعمة ربك فهو ذكر انعامه علينا ، فلا نيئس و نرجو ذهاب الشر . و أيضاً نصلى كثيراً ، فان الصلوة جلها الشكر . و أيضاً

نسعى فى اشاعة العلم و الدين ، فانه النعمة التى اعطانا الله و ربط بهما نعما أخرى . وتعليم القرآن تحديث بالنعمة المذكورة فى قوله تعالى : (ووجدك ضآلا فهدى) .

(٢) و فى ما قدمنا أمور تستدعى بيانا و تشييداً وهى هذه :

١ : القسم هو الاشهاد بآيات الله و سننه . هذا بيناه فى كتاب امعان فى أقسام القرآن .

٢ : النبى مرآة لاحوال امته .

٣ : يأتى الوحى بما يقع فى ما بعد ، كما ترى فى كتب الأنبياء لاسيما فى الزبور و فى سورة الحجرات . . . . . .

{١٢}

نظرة فى نظم سورة الم نشرح

شرح الصدر ، وضوح الامر وذهاب التردد واطمئنان القلب و طيب النفس لامر ، و هو خلاف ضيق الصدر . كما قال : (رب اشرح لى صدرى ويسرلى أمرى) و كما قال : (ويضيق صدرى و لا ينطلق لسانى) و كما قال : (افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) وأيضاً كما قال : (و لكن من شرح بالكفر صدراً) .

و هذا اول امر من اراد جسيما من الأمور ، فاذا تجرد له وتوسع نظره ، علم ما فيه من الصعوبات ، فاحس بثقل على نفسه و حمل باهض على عاتقه . فاذا تحمل ذلك علا امره و رفع ذكره و ذلك من سنة الله تعالى فانه ربط اليسر بالعسر . . . . . .

{١٣}

نظرة فى نظم سورة الفلق

الفلق قد جاء فى القرآن ، لفلق الصبح و لفلق الحب ، و ذلك قوله تعالى : (ان الله فالق الحب و النوى) وقوله تعالى : (فالق الاصباح) والى هاتين الجهتين يشير ذكر الخلق و الغسق بعده . والخلق عام و كذلك الفلق فهذان متصلان متشابهان . ثم أتبعهما تفصيلا للشر الذى تضمنه الخلق ، وهو الظلمة و الضعف و الحسد ، فيعشو عن النور و يضيعه . فكما أنه يفلق الظلمة فيخرج النور فكذلك هو يفلق كل حب و بذر ، فيخرج منه ما أودع فطرته ، والانسان أكثر حظا من نفائس هذه الودائع . وهو مع ذلك أشد احتياجا إلى تربية من ربه لشدة جهله وغلو عداوته ، يحرص على كل مراقى و يهجم على كل خطر . ثم قد سلط عليه عدوه الذى جامع حيله أن يقطعه عن معرفة الحق ، فان لم يقدر على ذلك أوهن عزيمته ، فلم يعمل بما علم . كما حكى الرب تعالى عن آدم عليه السلام : (و لقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما) و لذلك أوجب عليه الاستعاذة بالرب تعالى ليحفظه من شر الظلمة و من شر الوهن فى العزيمة .

و قوله تعالى : (من شر ما خلق) صريح فى أنه تعالى خلق ما يتضمن شراً ولا يتصور أن يكون ذلك الشر مقصوداً لذاته . فاما أن يكون وسيلة إلى خير ، فلم يبق شراً ، و اما أن يكون من لوازم خير . و هذا يحوجنا إلى اثبات دعوى خاصة ، و هى أن الشر ربما يلزم خيراً ، فنرجع إليه فيما بعد . و أما الآن فنكتفى بمثال لذلك ، وهو أن الحسن و الفضل

فى من فاق الاقران ، يهيج حسدهم . كما قيل فى الامثال : « لا تعدم الحسناء ذاما » . و أكبر ذلك إذا وضع الافضل و رفع المفضول ، لاستحقاق باطن ظهر عند الامتحان . و الخلق ليس إلا اظهار ما هو المستكن ، و الاظهار هو الجهد و هو الابتلاء كما قال تعالى : (خلق الموت و الحياة ليبلوكم) و ابتلى آدم ، فظهر ضعفه العقلى و الاخلاق ، كما قال : (فنسى و لم نجد له عزما) و لكن عرف ذلك و استحيى و تاب ، فخرج من الشر ، الخير له . معرفة الفقر إلى الرب ، و الحياء ، و حسن الظن به ، فاستحق الاجتباء و المغفرة . و هذا العطاء احسان ولكن نشأ منه حسد من أظهر استكباره و سوء الظن بالرب .

جاء فى القرآن : (تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت و تخرج الميت من الحى و ترزق من تشاء بغير حساب) فنبه على خلق الضد من الضد . و قد أكثر القرآن من أمثلة ذلك . وكان رئيس حكماء يونان يقول : ان الخلق إنما يكون من ضده . و القرآن قد نبه على أمور بذكر هذا الأصل العظيم . و لنذكر منها ههنا أمرين :

(الف) قد التبس على العقول بدء الشر . فان البارى تعالى لا يخلق إلا ما يشاء و ما يريد فكيف خلق الشر ؟ و قد عجزوا عن حله واضطروا إلى مذاهب باطلة كما تعلم .

(ب) و كذلك كبر عليهم تصور الوجود من العدم المحض وذلك بما غلب عليهم أن كل شئ لابد له من مادة قديمة . و فى ذلك أيضاً ذهبوا إلى مذاهب باطلة .

و كل من لم يفهم معنى الخلق ، أشكل عليه هاتان المسئلتان .

(٤٨)

استدراك ما فات

من هذا الكتاب

سقط بعض الموضوعات منه فى أثناء الطبع و لم انتبه لها إلا بعد أن بلغ الكتاب نهايته . فرأيت أن اضمها فى آخره محافظة على انتظام سلسلتها . و ها هى ذى :

(الجامع)

(١)

طريق استدلال القرآن

استدلالنا من الظاهر على الباطن ، و من البادى على الخافى ، و من الفرع على الأصل . فلئن كان الباطن اصلا و أساساً لقد كان الظاهر سبباً للعلم و وسيلة إلى المعرفة و ذريعة إلى اليقين . و ذلك طريق القرآن وهو العبرة بالآيات الدالة على حقائق خفية بينات فى صدور الذين أوتوا العلم الذى يستدلون بالمشهود على الغيب فهم على بصيرة . و ذلك هو الصراط المستقيم . فان الظاهر متصل بالباطن بطرف منه ، و من نظر فى أطرافه و جوانبه ، اهتدى إلى أصله و مبدئه .

و أما الملحدون ، فيحيدون عن هذا الطريق السوى و ينكصون على أعقابهم أو يقفون كالأعمى ، فلا يرون ما وراء الظاهر . فهم القانعون بالقشر من اللب و بالصدف من الجوهر .

(٢)

التدبر يهدى إلى أصل الأمور

قال الله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)

موقع الآية : الأمر بإطاعة ما أنزل الله تعالى من الأحكام العادلة ، و لا خلاف فى الحق و العدل و قد آمنوا به أولا . فكيف يكفرون بعد الايمان ؟ و إنما خيل إليهم أنه ربما يخالف الحق و يناقض نفسه . فشكوا فى كونه من عند الله و لزوم التسليم له فى كل أمر . فقيل لهم أنه لو كان من عند غير الله لكان فيه اختلاف كثير . و القرآن خال عن الاختلاف فان كل ما فيه من الأحكام و العقائد فهى على الحق المحض و العدل التام .

من افاداته رحمه الله :

(١) إن صاحب قلبا و فكرا و عقلا يقينيا [illegible] لا يجد ذلك فى القرآن أو السنة الصحيحة [illegible] و هكذا بل فوق ذلك بكثير ، يطلع على أمور يصير على بينة من ربه . ثم يأتيه الأمر و يوافقه ما أدرك من قبله . فيكون نورا على نور .

(٢) إنما تفكرت فى سورة ظهرت لى أمور [illegible] ثم قرأتها بعدها [illegible] و وجدت و [illegible] على ما ظهرت أولا ، ثم قرأت ثالثا اتضحت أمور أخرى لم أر وجهها . و [illegible] على ما ظهرت من قبل و كذلك نظرة بعد نظرة تكشف [illegible] كما قيل : هو المسك ما كررته يتضوع [illegible]
و كذلك أمور الفكر تلمع كالبرق و تخفى و [illegible] القرآن و [illegible] و النتائج كلها على طرف الثمام . و لكن [illegible] فان هذه النتائج ليست كظهورات [illegible] أساسها [illegible] ظهورات كثيرة لا تجد فى إشكال القدماء [illegible]

فعدم الاختلاف يثبت أنه من الله وحده و لكونه من الله ثم لكونه مبنيا على الحق ، يجب عليهم أن يطيعوه و اما ما خيل إليهم من الاختلاف فدعوا إلى تدبره ، فان التدبر يهدى إلى أصل الأمور و يتبين الموافقة فيما يرى مختلفا لقلة النظر و عدم التدبر . . . . .

(٣)

نظم القرآن

ترى فى القرآن أهم شئ ، أمر الآخرة و القرآن . فان العمل لا يأتى إلا على الايمان بالجزاء و البعث بعد الموت . و الايمان بكتاب يهديهم . و الشبهة على هذين الأمرين تبقى على مر الدهور .

و كذلك ترى أمر الوحدانية أهم فانه كالاساس و الابجد . فترى فى القرآن هذه الأمور مشتبكة و مكررة و مدرجة و مندمجة بعضها فى بعض تجدها كما قال الشاعر :

تطلخص سلكى و مخلوجة كرك لا مين على نابل

و يلحق بذلك ما يناسبه كالاطاعة و الشكر و تفصيل أمور الآخرة من الجنة و النار و حسن أحكام القرآن بذكرها و غيرها . . . . . .

(٤)

ربط المعاد و التوحيد

كثيرا ما ترى فى القرآن مثل ما قال الله تعالى فى سورة الروم : (ما خلق الله السماوات و الأرض و ما بينهما إلا بالحق و أجل مسمى و إن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) فبدا لى أن الخالق الحكيم

لا يخلق شيئاً الا لمصلحة تحصل منه ، فاذا حصلت هذه ، جاء أجل الشئ، وهذه المصلحة أيضاً لمصلحة أخرى و الا وقفت آلاء الله . فنظام الخلائق في ترق و رجوع إلى الله تعالى كما قال : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً و أنكم إلينا لا ترجعون) فهو الخالق و إليه المرجع و المآب فهو المركز و المحيط فلا يسبقه و لا يفوته أحد . و هو الأول و الآخر فلا مجال لاله آخر .

و لذلك كثيراً ما ترى في القرآن ذكر التوحيد أو تقبيح الشرك بعد ذكر المعاد ، كما ترى بعد الآية المذكورة : (فتعالى الله الملك الحق لا اله إلا هو) . . . .

من افاداته رحمه الله :

النسبة بين الصبر و الصلوة

(١) أنهما يشتقان من نبعة واحدة و هي التقوى و الايمان بالآخرة . قال تعالى : (و استعينوا بالصبر و الصلوة و انها لكبيرة إلا على الخاشعين (أى المتقين الخائفين الخاشعين) الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم و انهم إليه راجعون)

(٢) ثم انهما يتعاونان لأن الصلوة ذكر فلا يدع القلب يذهل عن الغيب و بذلك يسهل عليه الصبر . و أما الصبر فهو الاستقامة عند هجوم الفتن و الشدائد فيحفظ القلب عن التحول فيذكر ربه و يصلى . فهما دائرة . شدة في الايمان ، و صبر على اذى اعداء الله ؛ و صلوة . . . . . .

مواقع الأمور و قرانها

الاستدلال بالنظائر : باب وسيع . فانك ترى أموراً تقترن والمناسبة بينها خفية ؛ ولكنك تراها في مواضع . فلابد من مناسبة بينها ؛ فاذا تفكرت في آثارها ولوازمها و عللها ، هديت إلى المناسبة التى خفيت عليك في أول النظر .

(١) الحكم العام بعد أمر خاص ربما يتعلق به كقوله تعالى : (يمحق الله الربو و يربى الصدقات (أمر خاص) و الله لا يحب كل كفار اثيم (حكم عام) اى آكل الربو كفار اثيم .

(٢) المقابلة بين امرين ذكرا معاً مثل قوله تعالى : (يمحق الله الربو و يربى الصدقات)

(٥)
وجوه خفاء النظم

(١) منها حذف بعض الأجزاء لدلالة الباقى عليها . فان كان في قصة فلا يخفى الاعلى بليد أو متبلد . و مثال ذلك في سورة يوسف . و إن كان في الحجج و ضرب الأمثال فلا يكاد يخفى على من توقد ذهنه و ذكا عقله كما كثر العرب .

و لولا بلغتنا أشعارهم وخطبهم و اسجاعهم و حكمهم لا سيما عن لم يكتب و لم يخط و لا سيما من نسائهم و لا سيما على الارتجال ، لجعلنا العرب كسائر الأقوام . و لكنهم قوم أذكياء يفهمون قبل ايفاء أجزاء الكلام و يعدونه عيباً و كان يعجبهم الايجاز ، و يعلم الاطناب و إن شئت فانظر في سيرة اسبارتا من اليونانيين فانهم قوم شابهوا العرب في شطر من أخلاقهم .

(٢) منها أن بعض الكلام لم يحذف و لكنه ذكر فيما يتبعه من بعد باسلوب آخر . فلو ذكره أولا ، لكان زائداً على الحاجة . و مع ذلك ربما كرر القول للتاكيد كما قال : (فلا اقتحم العقبة . . . ثم كان من الذين آمنوا) سورة البلد آية : ١١-١٧ .

و تبديل الأسلوب من خصائص القرآن و هو آلة للتحويل ، ولكنه يحمل البيان سهلا سائغاً واضحاً . . . .

(٣) و منها عدم الوقوف على حالات المتكلم من غضبه واستخفافه وحسرته و إعراضه . في الكلام تراكيب خفية ، تدل على هذه الأمور ولكن الوقوف عليها ربما يتعذر على الاجنبي . و نستدل عليه من أسلوب

كلام و معناه . و من الأسلوب الاستفهام و الخطاب و سرعة الالتفات غلظة القول و طول الكلام . كما قال : (فبما نقضهم) الآية

فلو كان لهذه الأمور علامات لكان فيه بعض الهداية للعجم ، وهذا ليس من المعجزات . فانه روح الكلام و لا هادى إليه إلا حاجات القلب هو مفهوم للسامع ، ممتنع عـلى المتصنع . و ان يتكلف أحد أن يأتى بكلام فيه اظهار الحسرة و الغضب و اللطف و غير ذلك بأشد ما يكون وحاله خلاف ذلك ، يعد أبلغ الناس و أوسعهم تخيلا و هذا هو بعض الكلام . ثم هذا مع صعوبتــه يمكن فى بعض كلام الآدمى ، فان أحد بكلام الملك أو الحكيم فى سطوته وكبريائه ورفعته ، حتى يلتبس على السامعين فكانما بلغ من صناعة الخطابة أقصى غايتها ولـكن ربما يفتضح تصدى لهذه الصناعة كما قيل : و ليس التكحل فى العينين كالكحل . والمرء مخبوء تحت لسانه . و لكن لو سلم عن الافتضاح فالرجل ليس من الملك ببعد ، فانهما انسان و لكن ان تصدى أحد أن يكلم بكلام الرب و عرضه عـلى العقلاء و الخطباء و الشعراء المشهورين بهذه الصناعة و نقده زاد و زوراً من قبل نفسه و لا يرون فى كلامه انحطاطاً عن تلك القمة و اختلافا عن تلك الدعوى فى شئ من تصاريف قوله ، فهذا مما يعجزه العقل . ألا ترى أن ملطن أحسن فى حكاية كلام الشيطان غاية الاحسان فى حكاية كلام الرب .

ثم اعلم أن القرآن أظهر جلال الله و عظيم شانه و عزيز سلطانه بقدر لا يوجد فى دين من الأديان . فبعد هذه الرفعة و الجلال جاء كلام يبلغ هذا الشان و لا يقصر دون هذا المكان . حتى يصدق عليه ما

قال الله تعالى : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشـية الله و تلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) « سورة الحشر : آية ٢١ » .

و لقد وجدت العرب هذه السطوة و الرفعة فى القرآن فنسبها إلى الشعر ، لما كانوا يرون الشعر أشد تأثيراً فى قلوبهم . ثم لم ترض نفوسهم بذلك فقالوا انه سحر أو من الجن فظنوا أن النبى مجنون .

(٤) ترى عدة آيات متشتة ، حتى يأتى بعدها أمر يجمع كلها فتصير متحدة لأن كلها تمهيد لما بعد ، كما ترى فى سورة البقرة (١٥٩ - ١٧٧) .

(٥) عموم القول فى الممهدات و المعترضات ووجه القول ههنا إلى سمت خاص فلابد من رد العام إلى جهته الخاصة .

(٦) احتمال المعـانى المتعددة و التخصيص غير مقصود . فى بعض الحال الشبهة مقصودة كوقت الساعة .

(٧) علاقة المفسر بفن من الفنون و اختصاصــه به . فالجدلى مثلا لا يرى الأمسئلة الجبر و القدر ، كما ترى فى تفسير الرازى . و المتصوف لا يلتمس إلا حقائق أحوال الروح و نسبته إلى البارى . و الفقيه لا يهمه إلا الفروع و المحدث يسرد من الروايات غير مشهور فى نقدها . فيأتى بما يضل فى اختلافها نظم القرآن .

(٨) كثرة الشاكين الذين لا يعتمدون على رأى ، فيأتى باقوال مختلفة فى اختلاف الأقوال يصعب تتبع ما هو الذى لا يستقيم النظام إلا به .

(٩) من لاهم له من القرآن إلا أمر خاص ، فيحرف الألفـاظ و

من المعانى ، ما لا أصل له فى القرآن ، فيقتنع بكل معنى ركيك يوافقه
مض عن كل أمر واضح لا يوافقه .

(١٠) اختلاف طبائع المدنيين من الذين نزل عليهم القرآن ، فترى
لدنيين غلبة ميلان خاص وتجمد الطبيعة فى قالب غير فطرى بعيد عن
جة التى بقيت على جريانها المطلقة لا عوج فيها و لا أمت .
و القرآن مع غموضه ليس بتقيد محدود ، و إذ هو نبع من الفطرة ،
فة وسعة . و الفرق بين عقل المدنى و البدوى كالفرق بين أبصارهما
رى فى المدن زرقاء و لا ابن حلزة كما لا تجد فى البوادى حريريا
نه و مهملة . . . .
. . . . (بياض فى الأصل) .

(٦)

وجوه الخطأ فى التفسير

وجوه الخطأ ، كل ما مر فى وجوه خفاء الترتيب ، ولكن ههنا نورد
را خاصة :

(١) بعد ما تفرقت أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى المذهب ، واتخذ
فرقة مذهباً خاصاً ، متميزة فى فروع تخص بها ، اعتقد ان خلافه باطل
ل . فأول القرآن إلى مذهبه و جاء إلـــيه بقلب غير ساذج ، فتأويل
ض المفسرين يناقض بعضاً فوجب للفسر أن لا يكون له مذهب خاص
فى التفسير و لا يجوز للمقلد أن ينظر فى القرآن .

پاك شو أول و پس ديده بر آن پاك انداز

(٢) ميلان المتكلمين إلى انكار كل ما يكون عليهم حجـــة فانهم
يختارون من المدافع أقواها و الانكار من أقوى المدافع .

فترى أبا مسلم و السيد أحمد أنكرا النسخ فى القرآن و مال إلـــيه
صاحب حجة الله البالغة .

وكذلك ترى السيد أحمد أنكر المعجزة لما وجد فيها مزية لعيسى و
موسى عليهما السلام و نفيها عن محمد صلى الله عليه وســـلم حسب
ظاهر القرآن . . . .
. . . . (بياض فى الأصل)